أدب طبائع النساء في الشعر الأموي

شعر عمر بن أبي ربيعة أنموذجا

دكتورة/ زكية بنت عوض الحارثي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب- جامعة الملك سعود

المقدمة:

طفق شعرنا العربي يخصف من تجارب الحياة وأيام العرب ألوانا متنوعة من الوصف، حتى لقد تراءى لناظريه أنه مرجع واف لتأريخ الحياة العربية، وموسوعة تضم وصفا صادقا لها. ونالت المرأة نصيبا كبيرا من هذا الوصف؛ فقد احتفى بالمرأة في شتى فنونه، وقنن لها وضعا باذخا في القصيدة الجاهلية؛ فكان النسيب من "الأغراض التي يجري عليها الشعر الجاهلي"[١]، وكثيرا ما تناول وصف المرأة طبائعها، من العفة، والسؤدد، والكرم، وغيرها من جميل الصفات، إذ "كانت على الإجمال عظيمة الشأن، عفيفة النفس، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والأنفة."[٢] يقول الشنفرى[٣]:

فَيَا جـارَتِي وأنـتِ غَيـرُ مُليمَـةٍ إذا *** ذُكِـــــرَتْ ولا بِـــــذاتِ تَقَلّـــــتِ

لَقَـدْ أَعْجَبَتنِـي لا سَـقُوطًا قِنَاعُهـا *** إذا مـــا مَـــشَتْ ولا بِـــذَاتِ تَلَفُّـــتِ

تَبِيتُ، بُعَيْدَ النَّومِ، تُهْـدِي غَبُوقَهـا *** لِجَارَتِهـــا إذا الهَدِيَّـــةُ قَلَّـــتِ

تَحُـلُّ، بِمَنْجـاةٍ مِـنَ اللَّـومِ، بَيْتَهـا *** إذا مـــا بُيُـــوتٌ بالمَذَمَّـــةِ حُلَّـــتِ

---

[١]- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، د.ت، ص٥٢.

[٢]- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢م،ج٥، ص٦٦.

[٣]- الشنفرى، عمرو بن مالك، شاعر جاهلي، قحطاني، من أهل اليمن، وهو أحد الشعراء الصعاليك؛ أنشأ مع بعض رفاقه العدائين، ومنهم تأبط شرا، والسليك بن السلكة، وعمرو بن البراق، وأسيد بن جابر عصبة عرفت في الأدب العربي باسم الشعراء الصعاليك- مات مقتولا سنة ٧٠ ق.هـ (راجع: ديوان الشنفرى، جمع وتحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١٩٩٦،٢م، القسم الأول (ترجمة الشاعر)، ص٩-١٢.

كَأَنَّ لَهـا فـي الأَرْضِ نِـسْيًا تَقُـصُّهُ *** علـى أُمِّهـا وإنْ تُكَلِّمْـكَ تَبْلَـتِ

أَمَيْمَـةُ لا يُخـزي نَثَاهـا حَلِيلَهـا *** إذا ذُكِـرَ النِّـسْوانُ عَفَّـتْ وَجَلَّـتِ

إذا هُـو أمْـسَى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِـهِ *** مَـآبَ الـسَّعِيدِ لـم يـسَلْ أيـنَ ظَلَّـتِ

فَدَقَّتْ، وَجَلَّتْ، واسْـبكَرَّتْ، وأُكْمِلَـتْ *** فَلَـوْ جُـنَّ إنْـسَانٌ مـن الحُـسْنِ جُنَّـتِ[1]

واستمرت هذه الطبائع تُتلى في شعر صدر الإسلام، بيد أنها اكتسبت مزيدا من الخصال الحميدة؛ حيث رفع الإسلام قدر المرأة، وعظم شأنها، فـ "اتجهت قواها إلى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والأنفة."[2] وظلت هذه الصورة معلقة على جدار الشعر في أوائل عصر بني أمية؛ إذ استمد قِيمه وعاداته وتقاليده من أعراق سالفة، ومع التحول الذي شهده المجتمع الأموي، وانتقاله إلى مرحلة جديدة من التحضر والمدنية، كان هناك تحول موازٍ في طباع المرأة؛ فقد "أصاب المناقب العربية في الدولة الأموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين"[3]، وعليه فقد "بدأت المرأة بتبديل طباعها؛ لأن العفة والغيرة أصابهما في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان، وانغماس بعض الخلفاء في الترف وانتشار الغناء، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل..."[4]، بيد أنه من الإنصاف أن نقر بأن هذه ليست الصورة الكلية لطبائع المرأة في هذه الفترة؛ إذ كانت الأصول العربية الإسلامية لا تزال متأصلة في كثير من النساء الأمويات، اللآتي لم ينجرفن في التيار السابق، وقد ظهرت طبائعهن في شعر هذه الفترة، فبرزت "شخصية المرأة في شعورها بالعزة والسؤدد والسمو الروحي والفكري، وشبه المساواة للرجل في إطار الحدود التي حددها الإسلام."[5]

لعل هذا التطور الملحوظ في طبائع نساء العصر الأموي، كان حافزا مشوقا لاستكناه طبيعته، والبحث في حقيقته، وكشف ملابساته. وإن كانت القضية تحتاج إلى

---

[1]- ديوان الشنفرى، م.س، ص٣٢-٣٣.

[2]- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، م.س،ج٥، ص٧٠.

[3]- جرجي زيدان، ج٥، ص٧١.

[4]- جرجي زيدان، ج٥، ص٧٤.

[5]- عبدالله الطيب، الحماسة الصغرى، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م، ص٩٤.

معيار لقياس مؤشر هذه الطبائع، فقد رأينا في شعر عمر بن أبي ربيعة مرآة صادقة لصورة المرأة وسمت طبائعها؛ فهو يعد من أهم شعراء الغزل في تلك الفترة، بما أولاه من اهتمام للمرأة الأموية، في أوصافها الحسية والمعنوية.

ويعد أدب الطبائع فرع من فروع الأدب؛ إذ يرمي إلى تقديم وصف هادف إلى إظهار الملامح الخُلقية لشخصية ما، وتسليط الضوء على سجاياها وصفاتها غير المحسوسة، وينظر أدب الطبائع إلى الشخصية من زوايا ثلاث، يمكن تصورها على النحو التالي:

فالشاعر ينظر للشخصية الموصوفة من ثلاث جهات، هي:

١- المظهر الخُلقي، حيث التركيز على مواقف الشخصية وتصرفاتها في أفعالها وكلامها بما يحمله من محاسن ومساوئ.

٢- السلوك الاجتماعي، حيث تصوير الشخصية في معاملتها الاجتماعية، وعلاقتها بمن حولها، ومراقبة سلوكها وانفعالاتها إيجابا وسلبا.

٣- السمات التي تساعد في تصور الشخصية، من شكل عام، ومظهر مميز يتضح في هيئتها، وملامحها التعبيرية.

وعند تسليط الضوء على أدب طبائع النساء في الشعر الأموي، نجد هذه الاتجاهات الثلاثة محصورة في مستويين يظهران طبائع المرأة الأموية، هما: الطبائع الموروثة، والمكتسبة. ويهدف المستويان كلاهما إلى إظهار حقيقة وواقع نساء العصر الأموي، وصفاتهن غير المحسوسة التي تميزهن وتظهر سجاياهن وأخلاقهن المحمودة منها والمذمومة.

استقرت هذه الدراسة على عنوان (أدب طبائع النساء في الشعر الأموي- شعر عمر بن أبي ربيعة أنموذجًا)، لتطرح عدة تساؤلات، هي:

١- كيف رسم الأدب الأموي طبائع نسائه؟

٢- هل سارت طبائع النساء في اتجاه واحد في الأدب الأموي؟
٣- كيف تناول عمر بن أبي ربيعة طبيعة المرأة الأموية؟
٤- ما المؤثرات التي شكلت طبائع النساء في شعر عمر بن أبي ربيعة؟
٥- هل كان شعر عمر بن أبي ربيعة مرآة صادقة لصورة طبائع النساء في عصره؟

اتخذت هذه الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي سراجا في دراسة هذه الظاهرة، ورصد تطوراتها، ومن ثَم تحليل أسبابها، والوقوف على نتائجها. كما فرضت طبيعتها أن تأتي في خطة قوامها: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة بيانها كالتالي:

١- المقدمة، وفيها لمحة عن تطور أدب طبائع النساء في الشعر العربي حتى العصر الأموي، كما اشتملت على خارطة البحث، ومنهجه.
٢- المبحث الأول: (طبائع النساء في الشعر الأموي).

ناقش أدب طبائع النساء في العصر الأموي، من حيث تنوعها، وأسباب هذا التنوع، من خلال نماذج شعرية لشعرائه، جاءت في محورين، هما:

٢-١- طبائع محمودة، ارتكزت على أبرز خصال النساء المحمودة في هذه الفترة، من العفة، والطهارة، والشرف، وغيرها من الصفات التي تحلت بها المرأة الأموية.
٢-٢- طبائع مذمومة، تطرقت لما ذمه الشعر الأموي من طبائع نسائه، من بخل، ودمامة، وقبح لسان، وغدر، وغيرها من الطبائع المذمومة التي نفر منها المجتمع.

٣- المبحث الثاني: (طبائع النساء في شعر عمر بن أبي ربيعة).

عرض لصورة طبائع النساء في شعر عمر بن أبي ربيعة، والمؤثرات التي دفعت إلى تشكّلها. وقد جاء في محورين، هما:

٣-١- طبائع محمودة، عكست اتجاهات صورة طبائع النساء في شعره، من حياء، وعفاف، وغيرها من الطبائع الحميدة التي بدت في شعره.
٣-٢- طبائع مذمومة، عبرت عن سيء طبائع النساء التي عالجها شعره، والمؤثرات الدافعة لتكوينها.

٤- الخاتمة، وفيها ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، وما استخلصته من ظواهر.

المبحث الأول

طبائع النساء في الشعر الأموي

الشعر وليد المجتمع، نشأ في كنفه، وانفطم على مادته، وشب في خياله وواقعه، ولذا فهو أكثر الفنون تعبيرا عنه، وأصدقها وصفا له، فالشعر مرآة المجتمع، و "كل ما في النص إنما يصدر عن فعل من أفعال المجتمع."[١] وتعد المرأة ركيزة أساسية في المجتمع، وقيمة كبرى فيه، وقد أيد ذلك ان عبد ربه الأندلسي بقوله:" فنحن نعايش المرأة، ولا نكاد في حياتنا نستغني عنها، والصلة بيننا وبينها وثيقة؛ فهي أم، وأخت، وزوجة، وبنت، وشقيقة"[٢]، ولا عجب أن نرى صورة طبائعها في شعرنا العربي.

والطبع والطبيعة: الخَليقة والسّجية التي جُبل عليه الإنسان. والطِّباع: كالطبيعة، مؤنثة... قال الأزهري: ويجمع طبع الإنسان طِباعا، وهو ما طُبع عليه من طباع الإنسان في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحزونتها وعسرها ويسرها وشدته ورخاوته وبخله وسخائه... وطبعه الله على أمر يطبعه طبْعا: فطره . وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها، وهي خلائقهم[٣].

وقد تضمن الشعر الأموي العديد من صور طبائع نسائه، فظهرت المرأة عفيفة، حييّة، حكيمة، ومدلّلة... كما ظهرت لعوبا، وغادرة، وماجنة...، ويرجع هذا التعدد في صور طبائعها إلى تعدد أطياف المجتمع الأموي الذي ضم الأصالة والانفتاح في آن واحد، وهي صورة معتدلة مقارنة بالتي عكستها مرآة الغزل والتشبيب، أو ضمتها كتب الأدب كالأغاني، والعقد الفريد؛ إذ بدت صورتها أحيانا مترفة، تتفنن في اللباس والزينة[٤]، وأحيانا أخرى سافرة ماجنة، متعلقة بالغناء، ومظاهر اللهو[٥]، بيد أن هذه ليس الصورة كاملة؛ فالمرأة الأموية شأنها شأن المرأة في شتى العصور، ويمكن

---

[١]- جان أيف تاديه: النقد الأدبي الحديث في القرن العشرين، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحديث، ط١، ١٩٩٤م، ص١٣٦.

[٢]- ابن عبدربه الأندلسي: طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب، وأخبار وأسرار، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، ط١، د.ت، ص١٦.

[٣]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، مج٨ ، ص٢٣٢، مادة "طبع".

[٤]- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب، ط ١٩٦٣م، ج١،٢١١، ج٨،١٧٦-١٩٤، ج١٦،١٤٣.

[٥]- الأغاني: ج٨،٢٧٧- ٣٣٤، ج١٦، ٣٢-٣٣، وابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: محمد سعير العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠م، ج٦،١١.

ويمكن استجلاء هذه الصورة من خلال تقسيمها إجمالا إلى قسمين، هما: طبائع محمودة، وأخرى مذمومة.

- **المحور الأول: الطبائع المحمودة:**

يعد الحياء[١] والعفاف[٢] من أجلّ الصفات التي اعتزت بها المرأة الأموية، وجعلتها من طبائعها، فبدت حييّة عفيفة، تظهر العقل والحكمة والحصافة، يقول جميل[٣] في وصف بثينة:

قَطــوفٌ أَلــوفٌ للحِجــال يَزِينُهــا * مَــعَ الــذلِّ منهــا جــسمُها وحيَاؤهــا**

مُنَعَّمَــةٌ ليــستْ بــسوداءِ سَــلْفَعٍ * صَــخُوبٍ كثيــرٍ فُحْــشُها وبَــذاؤها[٤]**

جمع (جميل) لمحبوبته جمال الصفات الخُلقية؛ فهي تسير على مهل، حتى لتألفها طيور الحِجال؛ لتَهادي مشيتها وبطئ حركتها، فقد جمعت بين الحياء كسمة أخلاقية اجتماعية ودينية، والدلال الذي يعكس واقعها المنعم المترف، فبدت حسنت الخُلُق، غير صخّابة ولا بذيئة، وهذا ما رغّب فيها جيرانها، فلا يتوانين عن صحبتها والجلوس إليها. ويقول كثير في عزّة[٥]:

---

[١]- الحياء: التوبة والحشمة..-وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أنه قال: الحياء شعبة من الإيمان؛ قال بعضهم: كيف جعل الحياء وهو غريزة شعبة من الإيمان وهو اكتساب؟ والجواب في ذلك: أن المُستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي، وإن لم تكن له تقيّة، فصار كالإيمان الذي يَقطَعُ عنها ويَحُولُ بين المؤمن وبينها.(راجع: ابن منظور: لسان العرب، م.س، مج١٤ ، ص٢١٧، مادة "حيا").

[٢]- العفاف، من العِفّة: الكفّ عما لا يَحِلّ ويَجْمُل-عفَ عن المحارم والأطماع الدَّنِيَّة يَ ِفّ عِفّة وعفًّا وعفافًا وعفافة، فهو عَفِيفٌ وعَفّ..-والاستعفاف: طلب العفاف وهو الكفّ عن الحرام(راجع: ابن منظور: لسان العرب، ابن منظور،م.س، مج٩، ص٢٥٣، مادة "عفف").

[٣]- جميل بن عبدالله بن معمر، شاعر أموي، عُرف بشعره العذري، وأصابه ما أصاب غيره من هؤلاء الشعراء التاعسين؛ فقد أحب بثينة بنت حباً بن حُنّ بن ربيعة، ابنة عمه تلتقي وإياه في حنّ من ربيعة في النسب، وكانا يقيمان في وادي القُرى، وهو موضع في الحجاز قريب من المدينة، وقيل إنه أحبها وهو غلام صغير، وهي جويرية لن تدرك، وقد علق بثينة شغلته عن سائر النساء، فوقف قلبه وشعره عليها، يذكر اسمها مرة، ويكني عنه مرة باسم آخر، حتى شُهر بها وشهرت به، توفي في سنة ٨٢هـ (راجع: ديوان جميل بثينة، تحيق: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥ وما بعدها).

[٤]- ديوان جميل، م.س، ص١٤-١٥-

[٥]- كثيِّر عزة، المشهور في اسمه صورة التصغير "كثيّر"، شاعر أموي، كانت صيغة التصغير نبزا لزمه؛ فقد كان حقيرا شديد القصر، وهو خزاعي العمّ والخال؛ فأبوه عبدالرحمن بن الأسود من خزاعة، وأمه جمعة بنت الأشم خزاعية أيضا، مات أبوه في صغره فكفله عمه، وقد عمل كثيّر في هذه الفترة من حياته في خدمته بالرعي، وفي إحدى المرات كان يسوق غنما إلى جار على ساحل البحر الأحمر، فلما بلغ الخبت وقف على نسوة من بني ضمرة فسألهن عن أقرب ماء يورد إليه غنمه، وكانت فيهن فتاة صغيرة السن أول ما كعب ثدياها تكلفت بإرشاده إلى الماء، وكانت هي عزّة التي نشب حبها في قلبه من يومئذ، مات في حوالي=

يهابُ الذي لم يـؤتَ حلمًـا كلامَهـا *** وإن كـــان ذا حلـــمٍ لـــديها تحلّمـــا

تروكٌ لِـسقْطِ القـولِ لا يهتـدى بـه *** ولا هـــي تُـــسْتَوْصي الحـــديثَ المكتَّمـــا

عَيوفُ القَذى تأبى فلا تعـرفُ الخنـا *** وترمـــي بعينيهـــا إلـــى مَـــنْ تكرمـــا[1]

دفعت طبائع (عزّة) من وقار وعفاف إلى هيبتها وإجلالها، فكل من طلب حديثها يجيء على حذر؛ فالصغير يهاب كلامها، والكبير يتخذ الحلم سبيلا لها. وهي في عفتها وعفافها عن عورة غيرها، تاركة لبذيء الكلام، غير متتبعة للمسترسل من أحاديث جيرانها، ولا ما خفي عنها من أخبارهم، كما أنها تعفّ عن فاحش الكلام، تنفر منه كنفور الإبل من الماء رغم ظمئها؛ تشمّه فتدعه وهي عطشى، ومن مبلغ وقارها ومن مبلغ وقارها أنها لا تكرم بنظرتها إلا الكرام.

وفي مثل هذا يقول كثير – أيضا–:

وكنتُ إذا ما جئتُ أجللـنَ مجلـسي *** وأبـــدينَ مِنِّـــي هيبَـــةً لا تجهُمـــا

يحاذرْنَ منّـي غيـرَةً قـد علِمْنهـا *** قـــديمًا فمـــا يـــضْحكنَ إلاَّ تبـــسُّما

يكلّلنَ حَدَّ الطرفِ عـن ذي مهـابةٍ *** أبـــانَ أولاتِ الـــدلِّ لمـــا توسّـــما

تـــراهُنَّ إلاَّ أن يـــؤدّين نظـــرةً *** بمـــؤخرِ عـــيْنٍ أو يُقلّـــبْنَ مِعـــصَما

كـــواظمَ لا يـــنطِقْنَ إلاّ مَحُـــورةً *** رَجيعـــةَ قـــولٍ بعـــدَ أن يتفهّمـــا[2]

يقدم (كثير) صورة لطبائع فتيات حيّه، فيسرد وقارهن وحياءهن؛ فيغضضن أبصارهن خجلا منه وهيبة له. وهذا طبعهن مع كل قريب وغريب. ورغم دلّهن ووسامتهن فلا تراهن إلا صامتات لا يبدأن الحديث، وإنما يكتفين بالرد على ما يُسأل،

=سنة ١٠٥هـ في آخر خلافة يزيد بن عبدالملك أو أول خلافة هشام (راجع: ديوان كثير عزة، جمع وشرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ص٥ ومابعدها)

[1]– ديوان كثير، م.س، ص١٣٤.

[2]– ديوان كثير، م.س، ص١٣٦–١٣٧.

وكلها من طبائع الحسُن، وجمال الخُلق، مما تتصف به المرأة الأموية العفيفة. ومثله قول عبيد الله بين قيس الرقيات[١] يصف عفّة أم عبدالعزيز بن مروان:

أُمُّــكَ بَيْــضَاءُ مِــنْ قُــضَاعَةَ فــي الْ *** بَيْــتِ الَّــذي يُــستَظَلُّ فــي طُنُبِــهْ[٢]

وصفها بنقائها من الدنس، وعفافها وعفتها، واختص هذا الطبع من طباعها؛ لأنه منبت كل طبائع الحُسن، ومنه يكون الحياء، والعفة والطهارة، وغيرها من جميل الطبائع.

وهذه ليست صورة مفردة، بل هي صورة عامة للحرائر من بني أمية، يقول عبيدالله بن قيس الرقيات في نساء قريش:

وَحِــسانٌ مِثْــلُ الــدُّمى عَبْــشَمِيّا *** تٌ عَلَــــيْهِنَّ بَهْجَــــةٌ وَحَيَــــاءُ

لا يَــبِعْنَ العِيــابَ فــي مَوْسِــمِ النَّــا *** سِ إذا طَــــافَ بالعِيــــابِ النِّــــسَاءُ

ظَــاهِرَاتُ الجَمَــالِ والــسِّرْوِ يَنْظُــرْ *** نَ كمــــا يَنْظُــــرُ الأَرَاكَ الظِّبَــاءُ[٣]

أولئك نسوة من بني عبد شمس، تمتاز طبائعهن بالحياء والعفاف؛ فهن غير متبرجات بزينة، لا يطفنَ بالثياب والعطور في المواسم كما تفعل النساء الوضيعات، ورغم جمالهن الظاهر – حتى لكأنهن أجمل صورة من الظباء– لا يزلن يتوشحن بالمروءة والشرف، وهي صورة عامة لكل النساء العبشميات، فأصلهن العريق طبعهنّ بهذه الطبائع، فجُبلنَ على الحياء والعفاف، والأخلاق الحميدة. ولم تقف هذه الطبائع الحميدة عند الحرائر من بني أمية فقط؛ بل كانت في الجواري والإماء – أيضا–، يقول الكميت[٤] في سلامة القسّ[١]:

---

[١]– هو عبيد الله بن قيس الرقيات بن عامر بن لؤي، شاعر قرشي حجازي، أحد الشعراء المجيدين في عصر بني أمية، يرجع لقبه إلى تشبيبه فيمن تسمى "رقية" فقد حفظ ديوانه طائفة كبيرة من القصائد والمقطوعات التي وجهها أو قدم لها بالغزل في رُقَيّة هذه– توفي في سنة ٧٥هـ (راجع: ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت، المقدمة–وعبيد الله بن قيس الرقيات –حياته وشعره– تأليف: إبراهيم عبدالرحمن، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٥٩م، ص٥٣ وما بعدها)

[٢]– ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، م.س، ص١٤.

[٣]– ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، ص٨٨.

[٤]- الكميت بن زيد بن الأخنس بن إلياس بن مضر، شاعر أموي، يكنى بالكميت أبا المستهل باسم ابنه الأكبر، كان شيعيا عصبيا عدنانيا من شعراء مضر، متعصبا لأهل الكوفة، وهو ما جرّ عليه نقمة الأمويين، كان الكميت عالما بلغات العرب، خبيرا بأيامها، من شعر مضر وألسنتها، والمتعصبين على القحطانية، العالمين بالمثالب، ولد في سنة ستين ومائة، وتوفي في سنة ست=

كَمَلَتْ في الجمَالِ والسّنِّ والملْ *** حِ وتَمَّتْ في عَقْلِها والعَفافِ

غَضَّةٌ بَضَّةٌ فَتَاةٌ كَعُوبٌ *** هَضْمَةُ الكَشْحِ وَعْثَةُ الأَرْدافِ

هِيَ شَمْسُ النَّهارِ في الحُسْنِ إلا *** أَنَّها فُضِّلت بِعَطْفِ الظِّرافِ

ولَها مَنظَرٌ ودَلٌّ شَهِيٌّ *** وحَدِيْثٌ مُرَتَّلٌ غَيْرُ جَافِي

خُلِقَتْ فَوْقَ مُنْيَةِ المُتَمَنِّي *** فَاقْبِلِ النُّصْحَ يابْنَ عَبْدِ مَنافِ[٢]

بجانب الجمال الحسي – من النعومة والاكتناز ونصاعة اللون، ورقة الجلد، وليونة أردافها، وغيرها من معايير الجمال الحسي في المرأة العربية – تمتعت هذه الجارية بجمال طبائعها؛ فهي عاقلة، وقورة، يخرج حديثها مرتلا محكما موزونا في لين ورفق، غير جافٍ ولا متعجرف. كما أنها عفيفة كفَّت نفسها عن كل قبيح ومحرم، مترفعة عن الدّنايا والصغائر.

ولِما للحياء من مكانة بين سائر طبائع النساء، فقد ألح عليه شعر هذه الفترة، باعتبار المرأة الحيّية أنموذجا في الجمال المعنوي، يقول جميل في بثينة:

مِن الخَفِراتِ[٣] البِيضِ خَوْدٌ *** إذا ما مَشتْ شِبرًا من الأرض تُنْزَحُ

مُنَعَّمَةٌ لَوْ يَدْرُجُ الذَّرُ *** وبينَ حَواشي ثوبِها ظَلَّ يَجْرَحُ[٤]

تجملت (بثينة) بالحياء الشديد، وهو تاج حُسنها ووشاح طبعها، وقدّمه (جميل) على حُسن خَلقها؛ باعتباره رأس مكارم الأخلاق، كما قالت أم المؤمنين (عائشة)

=وعشرين ومائتين.(راجع: ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، المقدمة)

[١]- سلامة القسّ: جارية اشتراها يزيد بن عبدالملك، وقد دخل عليه الكميت وهي عنده، فقال له: يا أبا المستهل، هذه جارية تُباع، أفترى أن نبتاعها؟ قال: إي والله يا أمير المؤمنين؛ وما أرى أن لها مثلا في الدنيا فلا تفوتنّك، قال: فصفها لي في الشعر حتى أقبل رأيك، فقال الكميت أبياته السابقة.(راجع: ديوان الكميت، م.س، ص٤١٤).

[٢]- ديوان الكميت، م.س، ص٤١٤-٤١٥.

[٣]- الخفرات: جمع خفرة، والخَفَرُ: شدة الحياء..-وتحفَّرت: اشتد حياؤها-(راجع: ابن منظور: لسان العرب، م.س، مج٤ ، ص٢٥٣، مادة "خفر").

[٤]- ديوان جميل، م.س، ص٣٣-

– رضي الله عنها–: "رأس مكارم الأخلاق الحياء"[١]. وقد سبق حميد بن ثور[٢] إلى هذا المعنى في قوله:

مِنَ البِيضِ عاشَتْ بَيْنَ أُمٍّ غَرِيرَةٍ *** وَبَيْنَ أَبٍ بَرٍّ أَطاعَ وأَخْدَمَا

مُنَعَّمَةٌ لَوْ يُصْبحُ الذَّرُّ سَارِيًا *** عَلى جِلْدِها بَضَّتْ مَدارِجُهُ دَمًا[٣]

فهي ذات حياء وعفّة، مُكرَّمة مصونة، منعها هذا الحياء من مخالطة غيرها، فليست بخرّاجة ولا دخّالة، حتى نعم جلدها وأبيض، ورقت حتى لو مشى النمل على جلدها تحولت مدارجه دما. وقد ردد (كثيّر) هذا الوصف في (عزّة)، يقول:

مِنَ الخَفِراتِ البِيض ودَّ جَليسُها *** إذا ما انقَضَتْ أُحْدوثَةٌ لَوْ تُعيدُها

مُنَعَّمَةٌ لَم تَلْقَ بُؤسَ مَعيشةٍ *** هي الخُلْدُ في الدُّنيا لِنفْسٍ خُلودُها[٤]

على هذا النحو بدت طبائع النساء في عهد بني أمية، من حياء وعفاف، وعقل ووقار، كما بدت سمة عامة شملت الحرائر والجواري على حد سواء. ولم تقتصر طبائعهن على هذه الخصال فحسب؛ بل عُرفت المرأة الأموية بحنانها على أولادها، يقول عبيدالله بن قيس الرقيات في أمٍّ ذي الودع[٥]:

حُبِّيتِ عَنّا أُمَّ ذِي الوَدْعِ *** وَالطَّوْقَ والخَزَرَاتِ والجَزْعِ

تَحْنُو على طِفْلٍ تُلاعِبُهُ *** صَلْتِ الجَبينِ لِسادَةٍ صُلْعِ

---

[١]– أبو عبدالله المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ج٢،٢٢٠، أبو بكر عبدالله بن أبي الدنيا القرشي البغدادي: مكارم الأخلاق، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٠م، ج١،٣٤.

[٢]– أبو المثنى، حميد بن ثور بن عبدالله بن عامر، شاعر بني هلال، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية، ووفد على النبي –صلى الله عليه وسلم– مُسلما، وضعه ابن سلام في الطبقة الرابعة من شعراء الإسلام، قال معظم شعره في الإسلام؛ إذ كانت معظم حياته في الإسلام، روى الصفدي في ترجمته أنه "توفي في حدود السبعين للهجرة"؛ إذ وجد في شعره رثاء لعبدالملك بن مروان(راجع: صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد الحجيري، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٨٤م، ج١٣/١٩٣، ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق: محمد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠م، ص٣١ وما بعدها.

[٣]– ديوان حميد بن ثور، م.س، ص٣٦٤.

[٤]– ديوان كثير، م.س، ص٢٠٠.

[٥]– ذو الودع: الطفل يعلق الودع ليقيه شر الحسد.

يَبْكِـــــي فَتُـــــسْكِـتُه بِبُرْدَتِهـــــا *** وَعَلَيـــــهِ مِنْهـــــا مـــــائلُ الفـــــرْعِ[1]

تبقى غريزة الأمومة طبعا متأصلا في المرأة الأموية، فرغم ما أدخله الانفتاح والثراء من مظاهر الترف، واتخاذ الجواري والرقيق للخدمة في البيوت[2]، ظلت طبيعة الحنان كامنة في صدرها، ترعى وليدها، وتحنو عليه، تلاعبه إن اشتكي، وتسكته إن بكى.

كما عُرف عنها حُسن المعاشرة، والوفاء لزوجها، يقول جرير[3] في رثاء زوجه:

نِعْـمَ القَـرِينُ وكُنْـتِ عِلْـقَ مَـضِنَّةٍ *** وَارَى، بِنَعـــــفِ بُلَيَّـــــةَ، الأحْجَـــــارُ

عَمِـــرَتْ مُكَرَّمَـــةَ المَـــساكِ وَفارَقَـــتْ *** مَـــــا مَـــــسَّها صَـــــلَفٌ، وَلا إقْتَـــــارُ[4]

لقد كانت نعم الزوجة النفيسة، لم تبخل على زوجها برعايتها وحنوِّها عليه، فعاشت حياتها معه عزيزة مكرمة، قد أسرته بحميد خصالها، وطيب فعالها، ولم تجره يوما إلى خصامها أو بُغض خصلة من طباعها. ويسترسل (جرير) في سرد طبائع زوجه، فيقول:

كانَـــتْ مُكَرَّمَـــةَ العَـــشيرِ وَلَـــمْ يَكُـــنْ *** يَخْـــشى غَوَائِـــلَ أُمِّ حَـــزْرَةَ جَـــارُ

وَلَقَـــدْ أرَاكِ كُـــسِيتِ أَجْمَـــلَ مَنْظَـــرٍ *** وَمَـــعَ الجَمَـــالِ سَـــكِينةٌ وَوَقَـــارُ

وَالـــرِّيحُ طَيِّبَـــةٌ إذا استَقْبَلتِـــهَا *** والعِـــرْضُ لا دَنِـــسٌ وَلا خَـــوَّارُ

كَانَـــتْ إذا هَجَـــرَ الحَلِيـــلُ فِرَاشَـــها *** خُـــزِنَ الحَـــديثُ وَعَفَّـــتِ الأسْـــرَارُ[5]

---

[1]- ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، م.س، ص٦٥.

[2]- أبو الحسن البلازي: فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م، ص١٤٧.

[3]- هو جرير بن عطية الخطفي (٣٣- ١١٤هـ)، أحد شعراء العصر الأموي، كان رجلا مضعوفا، نشأ في اليمامة، وفيها مات ودفن، وكانت نشأته في أسرة ليست على شيء من الجاه والشرف والثروة، كان فاحش الهجاء عفيفا في غزله، متعففا في حياته لا يعهر ولا يشرب الخمر، ولا يشهد مجالس القيان، يتظاهر بالتدين والتعصب للإسلام، وهو أحد أركان المثلث الأموي (الفرزدق، وجرير، والأخطل)، بيد أنه أهجاهم وأنسبهم، وأجمعهم لفنون الشعر.(راجع: ديوان جرير: تحقيق: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١٩٨٦م، ص٥ وما بعدها.)

[4]- ديوان جرير، م.س، ص١٥٤.

[5]- ديوان جرير، ص١٥٥-١٥٦.

فمن جميل طباعها، إكرامها عشيرها، وحسن جوارها؛ فلا هي ممن يخشى الجار مصائبه ودواهيه. وهي مع جمالها الخَلقي جميلة الخُلُق، كُسيت سكينة ووقارا في كلامها وفعالها. ومع طيب ريحها، طاب عِرضُها؛ فلا تدنسه بقبيح أو فُحش من الأفعال مكروه. وتوّجت طباعها الحسنة بكتمانها سر بيتها، وحفظها لحديث زوجها، فكملت في طبائعها وأخلاقها.

عاش كثير من النساء الأمويات حياة الرفاهية؛ وهو ما أثر في طبائعهن من مدنية، فبدت المرأة في الشعر الأموي مُرفّهة مدللة، ناعمة العيش، يقول عمر بن لجأ التيمي[1]:

لَيـــــاليَ يَـــــدعوني الـــــصِّبا *** إلـــى البَـيضِ تُكـسَى الحَـضرَمِيَّ المِـصلَّبا

نَـــواعِمَ يُـــسبينَ الغـــويَّ وَمَـــا *** لَهُـــنَّ قُلوبـــا إذ دَنـــا وَتَخَلَّبـــا

وَصَـــــورَهُنَّ اللهُ أحـــــسَنَ *** وَلاقـــينَ عَيـــشًا بـــالنَّعيمِ تَرَبَّبـــا

عِـــراضَ القَطـــا غُـــرَّ الثَّنايـــا *** مَهـا الرَّمـلِ فـي غُـرٍّ مِـنَ الظِّـلِّ أَهـدَبا

قَـصارَ الخُطـى تَمـشي الهُوينـا إذا *** دَبيـبَ القَطـا بِالرَّمـلِ يُحـسَبنَ لُغَّبـا

قَـــصَرنَ حَـــديثًا بَيـــنَهُنَّ *** وَكُـــلٌّ لِكُـــلٍّ قـــالَ أَهـــلاً وَمَرحَبـــا

رَقيـقٌ كَمَـسِّ الخَـزِّ فـي غَيـرِ ريبَـةٍ *** وَلا تابـــعٍ زورَ الحَـــديثِ المكَـــذّبا[2]

عكست صورة هؤلاء النسوة ما يتمتعن به من طيب العيش ورفاهية الحياة؛ فهنّ بِيض، نواعم، يخلبن لبّ الغَويّ ويخدعنه؛ بما جمعنَ من جمال الهيئة، وحُسن الصورة، ونعيم العيش الذي رُبِّينَ فيه. وقد أثَّر هذا الرغد في صورتهن الحسية؛ فبدون واسعات الأرداف، قد انثنى لحمهن بما لقين من عزيز العيش والظل الوارف. كما أثّر

[1]– عمر بن لجأ بن حدير التيمي، شاعر من فحول شعراء الإسلام الفصحاء المتقدمين، وضعه ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول شعراء الإسلام، وهو أحد شعراء التيم الذين لج جرير في هجائهم وفضحهم، وقد انتشر هجاء جرير وابن لجأ وذاعت نقائضهما إلى حد قذف المحصنات، وذكر العورات، ما دعا الوليد بن عبدالملك أن يأمر أبا بكر بن حزم الأنصاري بضربهما، فضربهما وأقامهما على البلس (غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه) مقرونين، بيد أن هذا الضرب والتشهير لم يزد الشاعرين إلا لجاجا وعنادا، فاستمر الهجاء–مات عمر بن لجأ بالأهواز، في نحو سنة ١٠٥هـ.(راجع: شعر عمر بن لجأ التيمي، تحقيق: يحي الحبوري، دار القلم، الكويت، ط٣،١٩٨٣م، ص٦–١٨)

[2]– شعر عمر بن لجأ التيمي، م.س، ص٣٨.

في طبائعهن الحركية؛ فرُحْنَ يتهادين في مشيهنَّ، كأنهن طيور القطا فوق الرمال متعبات يسرن بتؤدة ورفق. أيضا، أثّر في طبائعهن الكلامية؛ فصار الحديث بينهن قصيرا خافتا لا يكاد يُسمع، رقيق ناعم في نغمه كأنه الحرير. كذلك، أثر في طبائعهن الخُلقية؛ فعففنَ عن الكذب وبذيء الكلام، فلا يصدر عنهنَّ ولا يتتبّعنه. يقول كثيّر يصف عزّة:

هجـــانُ اللـــونِ واضـــحةُ المحيّـــا *** قطيـــعُ الـــصوتِ آنـــسةٌ كـــسولُ[1]

فهي بيضاء، خالصة البياض، خجولة الطبع، مُترفة، منعمة؛ قد بدا أثر الترف والنعمة في وضاحة وجهها و كسلها. يقول العرجي[2]:

بَـــلْ لَيْـــتَ شِـــعْرِي والفَتَـــي *** لِحَيْنِـــــــــــهِ مُجْتَلَـــــــــــبُ

هَـــلْ يَقْتَـــلُ المَـــرْءَ رَخِـــي *** مٌ دَلُّـــــــــــهُ مُخْتَـــــــــــضِبُ؟

رَخْـــصٌ غَـــضِيضُ الطَّـــرْفِ لاَ *** تُكْـــــــــشَفُ عَنْـــــــهُ الحُجُـــــــبُ

كالغُـــــــــصْنِ أعْـــــــلاهُ ورا *** بِ مـــــــا تُـــــوَارِي النُّقُـــــبُ[3]

جمع العرجي في الصورة السابقة من طبائع محبوبته (سلمى) بين عذوبة المنطق، والدلال، والحياء؛ فهو مفتون بجمال خَلقها وحُسن طبعها؛ قد خلبت لبه بصوتها الهادئ الرخيم، ويدها الناعمة المخضبة بالحناء، وطرفها الناعس من حيائها وخجلها، قد سترت جمالها بنقاب غطّى جسدها، فزادها جمالا، وزاده تعلّقا.

عُرفت المرأة في الشعر الأموي بالتمنّع والصدّ؛ فهي دائما مطلوبة وليست طالبة، وهو طبع يميزها ويزينها؛ إذ يرفع من قدرها في عين المجتمع، وينأى بها عن الابتذال والامتهان، يقول العرجي:

لَيْـــتَ نُعْمًـــا دَنَـــتْ بَهـــا اليَـــومَ دَارٌ *** لَيـــتَ شِـــعْرِي أَكُـــلُّ هَـــذَا جَفَـــاءُ؟

---

[1]- ديوان كثير، م.س، ص١١٩.

[2]- العرجي، عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان،شاعر أموي، ولد بالعرج بين مكة والمدينة سنة ٧٥هـ ، وإليها يرجع لقبه، كان شاعرا مطبوعا في النسب، نحا في شعره منحى عمر بن أبي ربيعة وتشبه به فأجاد، كما كان شاعرا سخيا له يسار ومال، توفي سنة ١٢٠هـ (راجع: ديوان العرجي، جمع وتحقيق وشرح: سجيع جميل، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٧ وما بعدها.

[3]- ديوان العرجي، م.س، ص١٧١-١٧٢.

فَلَقَدْ قُلْتُ إِذْ تَوَلَّتْ وَصَدَّتْ *** ذَاكَ وَاللهِ لِلْفُؤَادِ شَقَاءُ:

أَنْتِ يَا نُعْمُ شَقْوَةٌ عَرَضَتْ لِي *** بِئْسَ حَظًّا مِنَ الْكَرِيمِ الشَّقَاءُ[1]

يتساءل العرجي عمّا إذا كان بُعدها عنه جفاءً له، ويتعجب من طبعها في إعراضها وميلها عنه. ورغم أن هذا الطبع يمثل متعة للمرأة؛ في إحساسها بعلو مكانتها وكونها مطلوبة مرغوبة، فإنه مصدر شقاء للحبيب؛ إذ صدّها له شقاء دائما، يقول جميل في هذا الطبع عند بثينة:

إذا قلتُ: مَا بِي يا بُثَيْنَةُ قاتِلي *** مِنَ الحبّ، قالت: ثابتٌ، ويزيدُ

فَلا أنا مَرْدودٌ بما جئتُ طالبًا *** ولا حُبُّها فِيما يَبِيدُ يَبِيدُ

وأفنيتُ عُمري بانْتظارِيَ وَعدَها *** وأبلَيتُ فِيها الدّهرَ وَهوَ جَديدُ[2]

فلا هو –على ما به من وجد وشوق وتعلق– ينال منها بوصل، ولا حبها ينتهي ويبيد –على نأيها وصدها– فأفنى عمره بانتظارها توفي بوعدها الكذوب. ويختلف الحال عند الحطيئة[3] في قوله:

إذا حُدِّثْتُ أنَّ الذي بيَ قاتلي *** من الحبِّ قالت: ثابتٌ ويزيدُ

إذا ما نأتْ كانت لقلبي علاقةً *** وفي الحيِّ عنها هَجْرةٌ وصدودُ[4]

المرأة هنا متعلِّقة لا مُعَلِّقة، وعندها من الحب له أكثر مما عنده لها، والصدود هنا من طبيعته هو لا من طبيعتها هي، إذ يظهر الهجر والصد لها في الحي؛ مخافة الرقباء والوشاة. وإن كانت هذه صورة نادرة؛ قلما نجدها في طباع المرأة الأموية، حتى عند الحطيئة نفسه الذي لم يسلم من صدّ (هند) ونأيها، يقول:

---

[1]– ديوان العرجي، ص١٦٣.

[2]– ديوان جميل، م.س، ص٣٨–٣٩.

[3]– الحطية، جرول بن أوس بن مالك بن جؤبة بن مضر بن نزار، سمي بالحطيئة لدمامته وقصره، شاعر مخضرم، لمع نجمه في العصر الأموي، وضعه ابن سلام في الطبقة الثانية مقرونا إلى كعب بن زهير، عانى الفقر والعوز؛ فقد نشأ عبدا محروما، بيد أنه تغلب على فاقته بشعره، وصفه الأصمعي، فقال: "كان الحطيئة جشعا سؤولا ملحفا، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلا، قبيح المنظر، رثّ الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين"–قضى حياته بعضها في الجاهلية، وعمرا لا بأس به في الإسلام، متنقلا في أصقاع الجزيرة العربية، مستدرا العطاء بما ملكت قريحته من شعر جزل أحسن استغلاله، وظل كذلك حتى سنة وفاته ٤٥هـ

[4]– ديوان الحطيئة،م.س، ص٧٤.

ألا حبّـــذا هنـــدٌ وأرض بهـــا هنـــدُ *** وهنـــدٌ أتـــى مـــن دونهـــا النّـــأيُ والبُعـــدُ

فالصدّ والنأي ديدن المرأة ودينها، وطبعها المتأصل فيها، كما أنه دليل عزّتها، وسمو مكانتها، يقول العرجي:

فَإِنْ تَكُ لَيْلَـــى قَـــدْ جَفَتْنِـــي وَطَاوَعَـــتْ *** -بِعَاقِبَـــةٍ- بِـــي مَـــنْ وَشَـــى وَتَكَـــذَّبَا

فَقَـــدْ بَاعَـــدَتْ نَفْـــسًا عَلَيْهـــا شَـــفِيقَةً *** وَقَلْبًـــا عَـــصَى فيهـــا الحَبِيـــبَ المُقَرَّبَـــا

فَلَـــسْتُ -وَإِنْ لَيْلَـــى تَوَلَّـــتْ بِوُدِّهـــا *** وَأَصْـــبَحَ بَـــاقِي الوَصْـــلِ مِنْهـــا تَقَـــضَّبَا

بِمُـــثْنٍ سِـــوَى عُـــرْفٍ عَلَيْهـــا وَمَـــشْمِتٍ *** وُشَـــاةً بهـــا حَـــوْلِي شُـــهُودًا وَغُيَّبَـــا

عَلَـــى أَنَّنِـــي لا بُـــدَّ أَنِّـــي لَقَائِـــل *** -وَذُو البَـــثِّ قَـــوَّالٌ إذا مـــا تَعَتَّبَـــا-:

فَـــلا مَرْحَبًـــا بالـــشامِتِينَ بِهِجْرِهَـــا *** ولا زَمَـــنٍ أَمْـــسَى بِهَـــا قَـــدْ تَقَلَّبَـــا[1]

يشكو (العرجي) من هجر(ليلى) وصدّها وإعراضها، بعدما طاوعت الوشاة في حِيَلهم وتفريقهم بينهما، فبعُدت وشطّت، وتحول وصلها جفاء وكرها، حتى انقطع حبل الودّ بينهما.

على هذا النحو جمعت طبائع النساء في العصر الأموي من جميل الصفات، وحُسن الخصال ما جعلها ذات مكانة مرموقة في عين المجتمع، بيد أن هذه الصورة جمعت في الجانب الآخر مثالا قبيحا، تمثل في بعض النماذج التي استجابت للانفتاح ومظاهر المدنية القادمة على المجتمع المحافظ فأفسدت بعض عاداته وتقاليده، وغيّرت في طبائع نسائه، نطالعها في المحور الثاني.

- **المحور الثاني: الطبائع المذمومة:**

يرجع ما استهجن من طبائع نساء هذه الفترة إلى مصدرين، يمثل الطبع المتأصل أحدهما، بينما يمثل الآخر: المكتسب والمتقلد من الانفتاح الذي تعرضت له الدولة الأموية؛ إذ أن "أهل الدول أبدًا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح، وملكوا فارس والروم، واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من

[1]- ديوان العرجي، م.س، ص١٦٩.

الحضارة، فقد حكي أنه قُدم لهم المرقق، فكانوا يحسبون أنه رقاعا، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى، فاستعملوه في عجينهم ملحا، ومثال ذلك كثير، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك، والقومة عليهم، أفادوهم في علاج ذلك، والقيام على عمله، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم، والمشارب، والملابس، والمباني، والأسلحة، والفُرش والآنية، وسائر الماعون، والحرث، وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم، وليالي الأعراس، فأتوا من ذلك وراء غاية"[١]، ولا شك بأن هذا التأثر قد نالت منه الطبائع حظها.

يمثل اللؤم والغدر والسفور أسوء طبائع النساء التي برزت في الشعر الأموي، يقول الكميت:

ومَـــنْ يُطِـــعِ النِّـــساءَ يُـــلاقِ مِنهـــا *** إذا أَغْمَـــــزْنَ فِيْـــــهِ الأَقْوَرِيْنـــــا[٢]

يقدم (الكميت) صورة عامة لطبائع النساء؛ إذ يحملن طبع اللؤم والخبث، فمن يطعهن إذا عِبْنَهُ وزهدنَ فيه يلاقي الدواهي التي لا طاقة له بها، من نكران المعروف، وكفران العشير.

يقول عبيدالله بين قيس الرقيات:

لا بـــارَكَ اللهُ فـــي الغَـــوَانِي[٣] فَمَـــا *** يُـــــصْبِحنَ إلاّ لهُـــــنَّ مُطّلَـــــبُ

أبـــصَرْنَ شَـــيْبًا عَـــلا الذُّؤابَـــةَ ف *** ي الـــرَّأسِ حَـــديثًا كأَنَّـــهُ العُطُـــبُ

فَهُـــنَّ يُنْكِـــرْنَ مـــا رَأَيْـــنَ وَلا *** يُعـــرَفُ لـــي فـــي لِـــدَاتِي اللَّعِـــبُ[٤]

---

[١]– ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٣٠.

[٢]– ديوان الكميت، م.س، ص٤٢٢.

[٣]– الغانية: التي غنيت بحُسنها وجمالها عن الحلي، وقيل هي التي تُطلَب ولا تَطْلُب، وقيل هي الشابة العفيفة، كان لها زوج أو لم يكن، وقيل هي الجارية الحسناء سُمّيت غانية؛ لأنها غنيت بحسنها عن الزينة، وقال ابن شميل: كل امرأة غانية، وجمعها الغواني (ابن منظور: لسان العرب، م.س، مج١٥/١٣٨، مادة "غنا".)

[٤]– ديوان قيس الرقيات، م.س، ص٣.

فهو ينكر عليهن غدرهن ولؤمهن؛ فلا تنفض مطالبهن، ولا ينفك طبعهن ينكرن ما كان من معروف، ويظهرن الإعراض والنفور إن رأين الشيب والضعف في رأس بعولتهن، وهذا طبعٌ جُبلن عليه كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "...ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: لمَ يا رسول الله؟ قال: بكفرهنَ. قِيل: يكفُرنَ بالله؟ قال: يكفُرنَ العشير، ويكفرنَ الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهنّ الدهر، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قطّ"[1].

ويردد الكميت هذا الطبع فيهن، بقوله:

لَهُـــنَّ وللمَـــشِيْبِ ومَـــتْ عَـــلاهُ *** مِـــنَ الأَمْثـــالِ قَائِبَـــةٌ وقُـــوْبُ[2]

يذكر (الكميت) طبيعة الغدر واللؤم في النساء؛ فإن أبصرن الشيب أظهرن التنكر له، كالفرخ ينكر البيضة إذا انفصل عنها، وقد أكد الكميت هذا الطبع فيهن بنون النسوة المطلقة في صدر البيت (لهنَّ)، كما أكدها في إطلاقه على النساء كافة في شاهد سابق، ويذهب جرير لمثل هذا المعنى في قوله:

يَعِيْـــبُ الغَـــوَانِي شَـــيْبَ رَأْســـي بَعـــدَمَا *** يُفَـــرِّقْنَ بالمِـــدْارَةِ داجِيـــةً جَعْـــدَا[3]

وإليه ذهب (كثيّر) في قوله:

لعمـــرُ أبـــي أســـماء مـــا دام عَهْـــدُها *** علـــى قولهـــا ذاتَ الـــزُّمين وحالهـــا

ومـــا صَـــرَمَتْ إذْ لـــم تكـــنْ مـــستثيبةً *** بعاقبـــةٍ، حبـــلَ امـــرئ مـــن حبالهـــا

فواعجبـــا مـــنْ شَـــوْبها عَـــذْبَ نائِهـــا *** بملـــحٍ، ومـــا قـــد غيّـــرَتْ مـــن مقالهـــا

ومـــن نَـــشْرِها مـــا حُمِّلَـــتْ مـــن أمانـــةٍ *** ومـــن وَأيِهـــا بالوعـــدِ ثـــم انتقالِهـــا

وكنّا نراهـــا بـــاديَ الـــرأي خُلّـــةً صَـــدُوقًا *** علـــى مـــا أُعطيَـــتْ مـــنْ دَلالهـــا[4]

---

[1]– أبو عبدالله بن محمد البخاري: صحيح البخاري، دار بن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، باب كفران العشير، حديث رقم: ٥١٩٧، ص١٣٢٥.

[2]– ديوان الكميت، م.س، ص٣٠.

[3]– ديوان جرير، م.س، ص١١١.

[4]– ديوان كثير، م.س، ص٩٣.

لقد تبدل طبعها إلى الغدر، فلم تدم على العهد من قولها وحالها، ولم تصرم حبل امرئ من حبالها؛ لأنها لم تكن ترجو عاقبة شيء من تلك العلاقة. والعجب كل العجب من خلطها ومزجها عذب مائها بملح هجرها، فكيف تغيرت طبائعها في إخلاف المودة ونكران الجميل؟! وكيف أفشت سرا استودعته بعدما قطعت وعدا بحفظه؟! لقد كان من طبعها الصدق والوفاء، فكيف غدرت وتلونت؟!

قال يزيد بن مفرغ[1] في محنته:

أَصَـــرَمْتَ حَبْلَـــكَ مِـــنْ أُمامَـــهْ *** مِـــــنْ بَعْـــــد أَيَّـــــامٍ بِرامَـــــهْ

ورَمَقْتَهـــــــا فَـــــــوَجَدْتَها *** كالـــــضَّلْع لـــــيس لـــــه اسْـــــتقامَهْ

فـــــالرّيحُ تَبْكـــــي شَـــــجْوَها *** والبـــــرقُ يَلْمَـــــعُ فـــــي الغَمامَـــــهْ[2]

غدرت (أمامة) والغدر طبعٌ فيها؛ تخلت عنه وأنكرت وصله في محنته، وكان الأَولَى لو حفظت عهده، وراعت ودّه. لقد بدا طبعها القبيح، وظهر اعوجاجها، فهي كالعود الأعوج، لا يُرجى اعتداله. يقول جرير:

إنَّ الغَـــوانِي قَـــدْ قَطَعْـــنَ مَـــوَدّتِي *** بَعـــدَ الهَـــوى ومـــنَعنَ صَـــفوَ المـــشرَبِ

وَإِذَا وَعَـــــدْنَكَ نَـــــائِلا أَخْلَفْنَـــــهُ *** وجَعَلْـــــنَ ذَلـــــكَ مثـــــلَ بَـــــرقِ الخُلَّـــــبِ

يُبـــدينَ مِـــنْ خَلَـــلِ الحِجـــالِ سَـــوَالفًا *** بِيـــضًا، تُـــزَيَّنُ بالجَمـــالِ المُـــذْهَبِ[3]

فالغدر في طبعهن؛ يقطعن المودة بعد الوصل إن رأين الفقر والشيب في الرجل. وإذا وعدنَ أخلفن الوعد، فلا ينال منهن بوفاء، ومن لؤمهن يبدين من الزينة والجمال ما يرغب فيهن.

---

[1]- يزيد بن مفرغ الحميري، شاعر أموي، توفي سنة ٦٩هـ، عاصر فحول العصر الأموي، بيد أن الناس انصرفوا عن شعره لانشغالهم بالثالوث الأموي الذي ملأ على الرواة والناس أسماعهم، ثم لتحامي الرواة لشعر حفيده السيد الحميري، وهجرهم له مما جعلهم ينصرفون عن شعر جده، وإنما مات ذكره (السيد الحميري) وهجره الناس لسبه الصحابة وبعض أمهات المؤمنين وإفحاشه في قذفهم، فتحاماه الرواة، مما كان له أثره في ضياع شعر جده، كان ابن مفرغ كفئي في أشعاره؛ إذ كان مطبوعا على الشعر (راجع: ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، جمع وتحقيق: عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٩٨٢م، ص٩ وما بعدها)

[2]- ديوان يزيد بن مفرغ، م.س، ص٢٠٧-٢٠٨.

[3]- ديوان جرير، م.س، ص٢٢.

ومن الطبائع المذمومة التي ذكرها الشعراء في نساء العصر الأموي، نرى طباع اللّوم والعتاب المتكرر، يقول جرير:

وَعَاذِلَـــةٍ تَلُـــومُ فَقُلْـــتُ: مَهـــلاً *** فَـــلا جَـــوْرِي عليـــكِ وَلا اقتـــصَادِي

فَلَيْـــتَ العَـــاذِلاتِ يَـــدَعْنَ لَـــوْمِي *** وَلَيْـــتَ الهَـــمّ قَـــدْ تَـــرَكَ اعتِيـــادِي[1]

اللوم وكثرة العتاب طبع ذميم، مكروه من النساء؛ إذ تدعو كثرته إلى بغض طبع المرأة ، والنفور من مجالستها، والحديث إليها. وجرير – هنا– يدعو العاذلات إلى الكف عن لومه؛ فليس عليهن منه في شيء، ويتمنى لو يتسلين عن هذا اللوم المتكرر الذي جلب له الهمّ والنكد.

يقول الفرزدق[2] في أُمّه:

ولائِمَتـــي يَوْمًـــا عَلَـــى مـــا أَتَـــتْ بِـــهِ *** صُـــرُوفُ اللَّيَـــالِي وَالخُطُـــوبُ القَـــوَارِعُ

فَقُلْـــتُ لَهـــا: فِيئِـــي إِلَيْـــكِ، وَأَقْـــصِرِي *** فَـــأَوْمُ الفَتَـــى سَـــيْفٌ بِوَصْـــلَيْهِ قَـــاطِعُ[3]

ينهي الفرزدق أُمّه عن كثرة لومها وعتابها له؛ فهي لا تكلّ تلومه على ذنب لم يكن له فيه، يد[4]، فكلما طرأ الزمن بمصيبة، وألمت خطوبه بملمة، راحت تعاتبه وتلومه، حتى مل منها هذا الطبع، وكره منها هذه الخصلة القبيحة، فراح ينصحها بالكفّ عن لومه، والرجوع إلى عقلها؛ فكثرة اللوم وتكرار العتاب سيف يقطع كل وصل، ويفلّ كل مودة حتى ولو كانت أمه.

نلمَح من سوء طبائع النساء الأمويات، دمامة مظهرهن؛ نتيجة الإهمال في الاعتناء بنظافتهن الداخلية والخارجية، يقول عمرو بن لجأ في هجاء جرير:

---

[1]– ديوان جرير، ص١١٤.

[2]– الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة، كنّي بأبي فراس، ولُقّب بالفرزدق لجهامة وجهه وضخامته–شاعر أموي، ولد بالبصرة سنة ٢٠هـــ نشأ فيها، وتجول في البادية، فتطبّع بطبائعها: من قوة شكيمة، وغلظة وجفاف، وتعالٍ على المجد، يعضده في ذلك شرف أصل وكرم محتد، فأبوه غالب سيد بادية بني تميم، من الأجواد الأشراف– وهو أحد الثالوث الأشهر في العهد الأموي (جرير، والفرزدق، والأخطل)، توفي سنة ١١٤هـ – (راجع: ديوان الفرزدق، شرح وضبط: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١٩٨٧،١م، ص٥ وما بعدها)–

[3]– ديوان الفرزدق، م.س، ص٣٥٧–٣٥٨.

[4]– كان الفرزدق يرعى على أمه وهو غلام، فأغار الذئب عليه فأخذ كبشا، فلما راح إليها لامته، وهو من أول شعر قاله (راجع: ديوان الفرزدق، م.س، ص٣٥٧).

يَـشينُ حِجـــالَ البَيـــتِ ريـــحُ ثيابِهـــا *** وَخَبَّـــثَ خَـــدّاها المـــلابَ المطَيَّبـــا

إذا مـــا رَآهـــا المجتَلـــى مِـــن ثيابِهـــا *** رَأى ظَرِبانـــا[1] جِلـــدُهُ قَـــد تَقَوَّبـــا

وَإِن سَفَرت أَبـدَت عَلـى النـاسِ سَـوءَةً *** بِهـــا وَتَـــواري سَـــوءَةً أَن تَثَقَّبـــا

خَبيثَـــةُ رِيـــحِ المـــشفَرين كَـــأَنَّما *** فَـــسا ظَربـــانٌ فيهمـــا أَو تَثَوَّبـــا[2]

تحمل الصورة شيئا من المبالغة؛ كونها حِيْكَتْ للهجاء، بيد أنها –لاشك– تنقل لنا صورة لبعض طبائع النساء في هذه الفترة؛ إذ يستقي الشاعر –عادة– صوره من البيئة المحيطة، ويستقدم أخيلته من أجوائها. نلاحظ ظهور أم جرير في الصورة السابقة ذات طبائع ذميمة، تتمثل في إهمالها نظافة جسمها وبيتها، حتى لقد بدت رائحتها كريهة في بدنها وثيابها، فإذا رآها الناظر بدت له كظربان نتن الرائحة، كما بدت رائحة أركان بيتها خبيثة منفِّرة، فكل قبابه وما يزينها من ستائر ونحوه، قد أصابها خبث الرائحة ودمامة المنظر.

وقد تبدو المرأة لعوبا، تلهو بعقول الرجال، وتأسرهم بزينتها وصبوها، يقول الكميت:

مُهَفْهَـــةُ الكَـــشْحَيْنِ بَيْـــضاءُ كاعِـــبٌ *** تَهَـــانَفُ للجُهَّـــالِ مِنَّـــا وتلعـــبُ[3]

تمتعت هذه الفتاة بجمال حسي جذب عيون الرجال الغرّ إليها، وعلق أفئدتهم بها بما كان في طبائعها من لهو ولعب وخضوع بالقول، تضحك في فتور كضحك المستهزئ لكل من يحادثها، لا تمنع نفسها عن حديثه، فكانت محط الأنظار، ومهوى النفوس الضعيفة. ويعطينا الكميت صورة أخرى من طبائع المرأة الخائنة لزوجها، يقول:

ولا حليلـــةُ جـــارِي لَـــسْتُ زاعِمَهـــا *** تَـــصْبُو إلـــيَّ وَسَـــاءِ الـــصِّدْقِ والكَـــذبِ[4]

---

[1]– الظربان دُويبة تشبه الكلب، أصمّ الأذنين، صِماخاه يهويان، طويل الخرطوم، أسود السّراة، أبيض البطن، كثير الفسو، منتن الرائحة، يفسو في جحر الضّبّ، فيسدر من خُبث رائحته، فيأكله، وتزعم الأعراب: أنها تفسو في ثوب أحدهم، إذا صادها، فلا تذهب رائحته حتى يبلى الثوب (ابن منظور: لسان العرب،م.س، مج١ /٥٧١، مادة "ظرب".)

[2]– شعر عمر بن لجأ التيمي، م.س، ص٤٤–٤٥.

[3]– ديوان الكميت، م.س، ص٤٨.

[4]– ديوان الكميت، ص٧٧.

في البيت إشارة إلى طبع بعض النساء من ميلٍ إلى اللهو مع الأجنبي، وهو من مظاهر السفور وقبيح الخصال. يقول جرير:

وَجَـــدْنا نِـــسْوَةً لِبَنـــي عِقَـــالٍ *** بـــدارِ الـــذُّلِ أَغْـــراضَ الرُّمـــاةِ

غَـــوانٍ هُـــنَّ أَخْبَـــثُ مِـــنْ حَمِيـــرٍ *** وَأَمْجَـــنُ مِـــنْ نِـــساءٍ مُـــشرِكاتِ[1]

تعطينا الصورة – رغم كونها حِيكَتْ بخيوط الهجاء- لمحة عن بعض طبائع النساء الذميمة في هذه الفترة من السفور والمجون والخبث.

وجملة القول: فقد بدت طبائع النساء في الشعر الأموي منقسمة إلى فئتين، إحداهما صالحة، والأخرى طالحة؛ وهو ما ينمّ عن تعدد ثقافة المجتمع الذي احتفظ في بعض جنباته بالأصالة والمحافظة، فظهرت طبائع نسائه حميدة، تجمع العفّة، والعفاف، والحياء، والوقار، ورجاحة العقل، وحسن المعاشرة. في حين ظهرت في جنباته الأخرى صورة ذميمة لطبائعهن؛ كان بعضها طبعا متأصلا كاللوم، والعتاب، والغدر، وكفران العشير، ونكران المعروف. والبعض الآخر مكتسبا نتيجة الانفتاح والغزو الفكري الغربي عامة و الفارسي خاصة، كالسفور، والمجون، والفُحش، واللهو، واللعب.

[1]- ديوان جرير، م.س، ص٧١.

المبحث الثاني

طبائع المرأة في شعر عمر[١] بن أبي ربيعة

يُعدّ شعر عمر بن أبي ربيعة صورة معبّرة عن حياة المرأة الأموية، و"مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام"[٢]؛ فقد نقل لنا صفاتها الحسية والمعنوية، بيد أنه اتكأ على صورتها الحسية، وألحّ عليها إلحاحا شديدا لا نجده عند غيره من شعراء بني أمية، فظهرت لديه العديد من لوحات الغزل الصريح والعفيف. ولا نغالي إن قلنا بأن الديوان جلّه صورة غزلية في مفاتن المرأة الحسية، ولعل لنشأة الشاعر دور في رسم هذه اللوحة؛ فقد "نشأ عمر في النعمة على وسامة وفراغ، ومن حوله الجواري والأرِقّاء، يهيئون له من اللهو ما يتهيأ للسيد الفتيّ الفارغ من متاعب الحياة، وقد وصفه بعض من رآه بين فتيان بني مخزوم فقال إنه قد فرعهم طولا، وجهرهم جمالا، وبهرهم شارة وعارضة وبيانا، فهو تام الأداة للغزل ومصاحبة الحسان."[٣] فقد عاش مولعا بالجمال، باحثا عن المرأة، وقد صرح بذلك في قوله:

إنِّـــي امْـــرؤٌ مولَـــعٌ بِالحُـــسْنِ أَتْبَعُـــهُ *** لا حَـــظَّ لـــي فيـــهِ إلاَّ لَـــذَّةُ النَّظَـــرِ[٤]

وبلغ من شدة تعلقه بالمرأة أنه كان يتشبب بكل من يراها، لا يمنعه حِلٌّ ولا حَرَم، كما فعل مع عائشة بنت طلحة وهي تستلم الركن[٥]. ويعني هذا أنّ الغزل – لاسيما الصريح منه – هو المعوّل عليه في الديوان، ويبدو هذا جليا في تكرار الصورة الغزلية عنده؛ فـ "في حديثه عن الأرداف مثلا، كرر أكثر من أربعين لوحة بنفس الألوان والأصباغ... وفي ديوانه مالا يقل عن مئة بيت في وصف فم الحبيب أو ريقه أو ثناياه..."[٦]. ولا يعني هذا تهميشه لصورة طبائع نساء بني أمية؛ فإننا نجد صورتها

---

[١]– أبو الخطاب، عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن مخزوم بن مرّة، شاعر أموي، ولد سنة ٢٣هـ في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب على الأرجح، نشأ نشأة الترف والجاه، وكان له من الجمال والمال ما فتح له أبواب الملاهي على مصراعيها، وكان شديد الولع بالنساء..–تاب في أواخر حياته، وقيل: "فتك عمر أربعين ونسك أربعين"، يريدون أنه عاش في غوايته أربعين سنة، ثم تاب في الربعين الباقية، مات في سنة ٩٣هـ–(راجع: ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم وفهرسة: فايد محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م، ص٧ وما بعدها).

[٢]– طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط٧، ج٣٠٨/١.

[٣]– عباس محمود العقاد: شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ت، ص٧.

[٤]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم وفهرسة: فايد محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م، ص١٩٦.

[٥]– الأغاني، م.س، ج١٤٤/١.

[٦]– جبرائيل سليمان جبور: عمر بن أي ربيعة –حياته وشعره–، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د.ت، ج٤١١/٣

في شعره مطابقة إلى حد كبير مع شعراء عصره، وهو دليل على صدق هذه الصورة وواقعيتها. بيد أنها كانت أكثر وضوحا عنده؛ فقد كان أقربهم إلى طبائعها، إذ كان لاحتكاكه بالنساء أثر في الكشف عن نفسيتهنّ، فقد كانت نشأته في أحضانهنّ بين أمه وصاحباتها وجواريها، يسمع أحاديثهنّ وما يدور بينهنّ[١]، هذا بالإضافة إلى طبيعة عصره الغزلي؛ إذ كانت "المرأة تقبل على الرجل أكثر مما كانت تُقبل عليه المرأة الجاهلية."[٢] – أيضًا– كان لثقافة المرأة الأموية دور في تقريب هذه الصورة؛ إذ نالت "حرية واسعة في هذا العصر لم تكن جدتها أو أمها تنالها... وأصبحت تطلب الرجل وتغازله"[٣]، ويمكن استجلاء طبائع النساء في شعر عمر بن أبي ربيعة من خلال تقسيم صورتها إلى قسمين: طبائع محمودة، وأخرى مذمومة.

- **المحور الأول: الطبائع المحمودة:**

تتكون صورة الطبائع المحمودة للنساء الأمويات في شعر عمر بن أبي ربيعة من عدة خيوط، أولها الحياء والعفاف، يقول:

وَدَعَـــانِي مـــا قَـــالَ فيهـــا عتيـــقٌ *** وَهُـــوَ بِالحُـــسْنِ عَـــالمٌ بَيْطـــارُ

قَـــولُ نِـــسْوَانِها إذا حَفَـــلَ الـــنِّس *** وانُ فـــي مَجْلِـــسٍ وَقَـــلَّ الأَمَـــارُ

أَنَّهـــا عَفَّـــةٌ عَـــنِ الخُلُـــقِ الْـــوا *** ضِـــعِ وَالطُّعْمَـــةِ الَّتـــى هِـــيَ عـــارُ[٤]

رسم الشاعر صورة فردية لطبائع محبوبته، نقلتها قريناتها من النساء عنها، وأنبأه بها خبير بالحُسن. أنها ذات خلق عفيف، تترفع عن كل وضيع من القول والفعل، تنأى عن الطُّعمة الدنية التي تجلب العار والمذلة، وهذا الطبع منها وضعها في منزلة عالية بين النساء الكريمات العفيفات، ومثل ذلك قوله:

قَـــالْ عَلـــى رِقْبَـــةٍ يَوْمـــا لِجارَتِهـــا *** مـــا تـــأْمُرِينَ، فـــإنَّ القَلْـــبَ قَـــدْ شُـــغِلا

فَجَاوَبَتْهـــا حَـــصانٌ، غَيْـــرُ فَاحِـــشَةٍ *** بِرَجْـــعِ قَـــولٍ، وأمْـــرٍ لَـــمْ يَكُـــنْ خَطِـــلا

---

[١]– شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط٧، د.ت، ص٢٢٨.

[٢]– شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص٢٤٥.

[٣]– شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص٢٢٣.

[٤]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، م.س، ص١٤٩–١٥٠.

إِقْنَيْ حَيَــاءَكِ فــي سِــتْرٍ وَفــي كَــرَمٍ *** فَلَــسْتِ أَوَّلَ أُنْثَــى عُلِّقَــتْ رَجُــلا[1]

إنها امرأة عفيفة منيعة ضد الفحش، وقور لا تعرف الغلط المنافي للصواب، حييّة تلتزم الأدب، وتصون نفسها عن كل منكر، تستر نفسها وتكرمها عن الدنايا والصغائر، وترى في الإفصاح عن حبها عيبا مشينا تستهجنه، ولذا راحت تطلب نصيحة جارتها في هواها وتعلقها بالشاعر. هذه الصور الفردية تبدو فيها طبائع المرأة من حياء وعفاف يمتد خارج البيت كما هو داخله، يقول:

لَمَّــــا تَوَاقَفْنَــــا وَحَيَّيْنَاهُمــــا *** رَدَّتْ تَحِيَّتَنَــــا عَلَــــى اسْــــتِحْيَاءِ[2]

فليس من طبائعها السفور، ولا هي سلفع تحادث الرجال دون خجل، وإن حُييت ردت التحية على استحياء بصوت لا يكاد يُسمع.

وتتعدى هذه الصورة الفردية إلى جماعة النساء؛ فنرى الحياء سمة مشتركة، تتقاسمها نساء العصر الحرائر، يقول:

وَبِنَفــــسي ذَوَاتُ خَلْــــقٍ عَمِــــيمٍ *** هُــنَّ أَهْــلُ الْبَهــا[3] وَأَهْــلُ الْحَيَــاءِ

قَاطِنــــاتٌ دورَ الــــبَلاطِ كِــــرامٌ *** لَــسْنَ مِمْــنْ يَــزورُ فــي الظَّلْمــاءِ[4]

رسم الشاعر صورة عامة لخُلُق نساء عصره، فهن أهل الجمال والحُسن، وهن أهل الحياء؛ يتمثل حياؤهن في وقرهن في بيوتهن، وعيشهن حرائر كريمات؛ فلا يتزاورن ليلا، ولا هنّ من أهل السفور والتبرج. وتمتد هذه الصورة لتشمل الجواري كما شملت الحرائر، يقول:

وَحِــــسانًا جَــــوَارِيًا خَفِــــرات *** حَافِظَــــاتٍ عِنْــــدَ الْهَــــوَى الأَحْــــسابا

لا يُكَثِّــرْنَ فــي الْحَــدِيثِ وَلا يَــتْ *** بعْــــنَ يَــــنْعِقْنَ بِالبِهــــامِ الظِّرابــــا

طَيِّبــــاتِ الأَرْدانِ والنَّــــشْرِ عِيْنًــــا *** كَمَهــــا الرَّمْــــلِ بُــــدَّنًا أَتْرابــــا[1]

---

[1]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٢٨٦.

[2]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٤.

[3]– يقصد البهاء، وهو المنظر الحسن الرائع المالئ للعين، والبهيّ: الشيء ذو البهاء مما يملأ العين روعه وحسنه(لسان العرب، م.س، مج١٤، ص٩٩ "مادة : بها")

[4]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٥

هؤلاء الجواري الحِسان من طبعهنّ الحياء والخجل، يحافظنَ على شرفهنّ وعِرْضهنّ، عفيفات في حديثهنّ، لا يُكثرن في الحديث، ولا يتبعنَ لهوه. ومما حَسّنَ خُلُقهن، وزاد في جمال طبائعهن أنهنّ مُنعّمات طيّبات العرف والنشر.

ومن حميد طبائعهن رجاحة العقل، وحكمة الرأي، يقول:

طَـــالَ لَيْلـــي، وَاعْتَـــادَني اليَـــوْمَ سُـــقْمُ *** وَأَصَـــــابَتْ مَقَاتِـــــلَ القَلْـــــبِ نُعْـــــمُ

حُـــرَّةُ الوَجْـــهِ وَالـــشَّمَائِلِ والْجَـــوْ *** هَـــــرِ، تَكْليمهـــــا لِمَـــــنْ نـــــالَ غُـــــنْمُ

وَحَـــدِيثٍ، بِمِثْلِـــهِ تَنْـــزِلُ الْعُـــصْ *** مُ، رَخِـــيمٍ، يَـــشوبُ ذَلِـــكَ حِلْـــمُ[٢]

إن من طبائع (نُعْم) الحسنة وقارها ورجاحة عقلها؛ فهي كريمة لا يُلطم خدها، تتمتع بحميد الصفات وجميل السجايا، وقورة في كلامها، متزنة في فعالها، يخالط دلالها عقل ورزانة.

ويتكئ عمر ابن أبي ربيعة على طبيعة التدلل في المرأة، فيصف دلالها في مشيتها، وتنعمها في عيشتها، يقول:

تَـــــراءَتْ لـــــي لِتَقْتُلَنـــــي *** فَـــــصَادَتْني وَلَـــــمْ أَصِـــــدِ

بِـــذِي أَشُـــرٍ شَـــتيتِ النَّـــبْ *** تِ صـــــافي اللَّـــــوْنِ كـــــالْبَرَدِ

ثَقِـــــالٌ كَالْمَهـــــاةِ خَـــــري *** دَةً مِـــــنْ نِـــــسْوَةٍ خُـــــرُدِ

وَتَمْـــشي فـــي تَأَوُّدِهـــا *** هُوَيْنـــا المَـــشْيِ فـــي بَـــدَدِ

كَمَـــا يَمْـــشي مَهـــيضُ العَـــظْ *** مِ بَعْـــدَ الجَبْـــرِ فـــي الـــصَّعَدِ[٣]

جمعت هذه الحسناء إلى جمال ثغرها، وبياض أسنانها، وثقل أردافها، وجمال عينها، دلالا وتؤدة في مشيتها، تمشي في تثنٍ وتمايل، بطيئة المشي كالمجبور كسره يصعد جبلا، يحاذر الألم. يقول:

---

[١]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٥٧.

[٢]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٣٧.

[٣]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١١٤.

تَمْشِي الهُوَيْنَا إذا مَشَتْ فُضُلا *** مَشْيَ النَّزِيفِ المَخْمُورِ فِي الصَّعَدِ

تَظَلُّ مِنْ زَوْرِ بَيْتِ جَارَتِهَا *** وَاضِعَةً كَفَّهَا عَلَى الكَبِدِ[1]

فتدللها بائن في مشيتها؛ تمشي بتؤدة ورفق مرتدية ثوبا واحدا تتهادى فيه كمشية السكران يصعد مرتفعا، ومما يسهم في تطبعها بالدلال اكتناز لحمها؛ فهي تتعب من زيارة جارتها، حتى لتضع يدها على صدرها، وفيه إشارة إلى ترفّلها في النعمة والدلال.

قَطُوفٌ أَلُوفٌ لِلحِجَالِ غَرِيرَةٌ *** وَثِيرَةُ مَا تَحْتَ اعْتِقَادِ المُؤَزَّرِ

سَبَتْهُ بِوجْفٍ فِي العِقَاصِ مُرَجَّلٍ *** أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَكَوِّرِ

وَخَدٍّ أَسِيلٍ كالوَذِيلَةِ نَاعِمٍ *** مَتَى يَرَهُ رَاءٍ يُهِلّ وَيُسْحَرُ

وَتَخْطُو عَلَى بَرْدَيَّتَيْنِ غَذَاهُما *** سَوَائِلُ مِنْ ذي جَمَّةٍ مُتَحَيِّرِ

مِنَ البِيضِ مِكْسَالُ الضُّحَى بَخْتَرِيَّةٌ *** ثَقَالٌ مَتَى تَنْهَضْ إِلَى الشَّيءِ تَفْتُرُ[2]

بطيئة الممشى، تسير في دلال وغنج، يتهادى ردفاها السمينتان، استلبت عقله بشعرها الكثيف الأسود، وقد مشطته فبدا أثيثًا كقنو النخلة الملتف، وبخدها الأملس الطويل، فمن رآها كأنما رأى هلالا، وهذا الجمال تناغم مع دلالها في فعالها؛ فبدت شديدة الكسل في الضحى من رفاهيتها، تتبختر في مشيتها، متثاقلة إذا نهضت إلى حاجتها كالضعيف لا يقوى على الحركة.

لاتنفك المرأة تتباهى بطبع الصد والهجر؛ محتفظة بمكانتها وعزة نفسها، فهي مطلوبة لا طالبة. هكذا هي طبيعة المرأة الحرة، يقول:

تِلْكَ هِنْدٌ تَصُدُّ لِلهَجْرِ صَدَّا *** أَدَلالٌ هَجْرُ هِنْدٍ أُجِدّا

أَوْ لِتَنْكَى بِهِ كُلُومَ فُؤادي *** أَمْ أَرَادَتْ قَتْلِي ضِرارًا وَعَمْدا[3]

---

[1]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١١٩.

[2]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٢٩-١٣٠.

[3]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٠٣.

فالصدّ والهجر طبيعة فيها، ويتعجب الشاعر من تمسكها بهذا الطبع –رغم حبها له وتعلقها به– أدلالٌ هذا منها؟ أم هجر اقترب، وصدود حلّ!! أم نوت بهجرها ونأيها أن تؤلمه، وتستثير جروحه قبل أن تبرأ؟!! أم قصدت قتله، وعمدت إلى ضرّه؟!! والحقيقة، أن هذه طبيعة متأصل فيها، لا تنفك عنها، يقول:

صَدَدْتِ فَأَطْوَلْتِ الصُّدُودَ، وَقَلَّ مَا *** وِصَالٌ عَلَى طُولِ الصُّدُودِ، يَدُومُ[1]

ويقول أيضا:

وَلَقَدْ قُلْتُ إِذْ تَطَاولَ هَجْرِي *** رَبِّ لا صَبْرَ لِي عَلَى هَجْرِ هِنْدِ

رَبِّ قَدْ شَفَّنِي وَأَوْهَنَ عَظْمِي *** وَبَرانِي وَزَادَنِي فَوْقَ جَهْدِي

رَبِّ عُلِّقْتُهَا تُجَدِّدُ هَجْرِي *** ذاكَ وَاللهِ مِنْ شَقاوَةِ جَدِّي[2]

لقد طال هجرها حتى لم يعد يستطع عليه صبرا، وأضناه صدّها له وانصرافها عنه حتى أسقمه وبرى جسده، فلم يزدها ذاك إلا هجرا وعنادا. وهذا الطبع من الطبائع التي يحترمها المجتمع الذي فرضت أعرافه على المرأة الحرة أن تظل عفيفة مصونة، لا تميل مع الهوى، ولا تستجيب لرغبات الحب، تظهر الصدود وتبالغ في الهجر؛ لتظل في نظر المجتمع كريمة مصونة. وقد يبدو لنا اعتراض الشاعر على هذا الطبع منها، واستياءه من هجرها وصدودها، بيد أن الحقيقة غير ذلك؛ فالهجر والصد مما يقوي رغبة الرجل في الأنثى، ويزيد تعلقه بها، لاسيما عند عمر بن أبي ربيعة الذي أظهر المرأة على أنها جمال جسدي، وفتنة حسية سهلة المنال، ولكنه كان مفتونا أكثر بجمالها الخُلقي، وطبائعها الحسنة؛ "فقد كان يروقه الحديث العذب، والخلق الطيب، والنفس الرضية، والجاذب الروحي الذي لا يقتصر على الجمال الجسدي. ففي بعض النساء سحر وفتنة لا يرجعان إلى الجمال الجسدي وحسب، بل لهما صلة وثيقة بعناصر كثيرة من الجمال الإنساني، من سمو الثقافة وطيب الحديث، ورقة الروح وصفاء النفس وغيرها من المزايا الروحية التي تغمر صاحبها بهالة من الروعة والفتنة لا يعادلها

[1]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٥٨.

[2]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١١٤.

هالة من أي جمال جسدي"[1]، ولذا نجد شدة تعلقه بالمرأة ذات الطبائع الحسنة، والأخلاق الحميدة، حتى وإن أرّقه صدودها، وهمّه نأيها، يقول:

أرِقْـــــتُ، وَابَنـــــي هَمّـــــي *** لِنَـــــأيِ الـــــدّارِ مِـــــنْ نُعْـــــمِ

أمُـــــوتُ لِهَجْرِهـــــا حُزْنًـــــا *** وَيَحْلُـــــو عِنْـــــدَها صَـــــرْمِي

فَبِـــــئْسَ ثَـــــوابُ ذَاتِ الـــــوُدِّ *** تَجْزِيـــــهِ، ابْنـــــةُ العَـــــمِّ[2]

يزيده هجرها تعلقا بها، رغم ما أصابه من لوعة البُعد؛ فهو يموت حزنا لهجرها، وهي مستمتعة بقطع حبل محبته، فبئس الوصل وصلها، وبئس الجزاء يلاقيه منها.

لقد عرض الشاعر جانبا من طبائع النساء في عصره، بدت فيها المرأة صالحة تتمتع بالحياء، والعفاف، والعقل، والوقار، وتظهر الصدود والهجر، بيد أن هناك جانب آخر من هذه الطبائع بدت فيها المرأة بذيئة، سافرة، سلفع، كثيرة اللوم والعتاب، تغدر ولا تفي بوعدها. وكلها طبائع مذمومة، تعرض لها الشاعر، ورسم صورتها في ديوانه.

- **المحور الثاني: الطبائع المذمومة:**

شانت بعض طبائع النساء الأمويات؛ نتيجة النشأة والتربية السيئة، أو العادات والسلوك المكتسب من عصر تحررت فيه بعض النساء عن أعراف المجتمع، يقول عمر بن أبي ربيعة:

وَلَحَـــى[3] اللهُ كُـــلَّ عَفْـــلاءَ[4] زَلاّ *** ءَ عَبوســـا قَـــدْ أَذَّنَـــتْ بِالْبَـــذاءِ

صَرْصَـــرٍ[5] سَـــلْفَعٍ رَضِـــيعَةِ غـــولٍ *** لَـــمْ تَـــزَلْ فـــي شَـــصِيبَةٍ وَشَـــقاءِ[6]

يتمثل قبح المرأة في سوء طبائعها، من بذاءة اللفظ، وفحش الكلام، وارتفاع الصوت، وشدة الصياح، فكل بذيئة سليطة اللسان، عابسة الوجه، لا تكف عن الصياح

---

[1]- جبرائيل سليمان جبور: عمر بن أبي ربيعة –حياته وشعره–، م.س، ج٣/٢٢١-٢٢٢.

[2]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، م.س، ص٣٤٤-٣٤٥.

[3]- لحاه الله لحيًا: أي قبّحه ولعنه–ابن سيده: لحاه الله لحيًا، قشره وأهلكه، ولعنه (لسان العرب، مج١٤، ص٢٤٢، مادة "لحا").

[4]- العفل في الرجال غِلَظ يحدث في الدبر، وفي النساء غِلظٌ في الرحم(لسان العرب، مج١١ ، ص٤٥٧، مادة "عفل")

[5]- الصرصر: دويبة تحت الأرض تصرّ أيام الربيع (لسان العرب، مج٤، ص٤٤٥، مادة "صرر").

[6]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، م.س، ص٣٥.

والصراخ، متجرئة على الرجال كأنما ورثت طبائع الغول في قبحها وتسلطها وجرأتها غير المحمودة التي لا تعرف الحياء فهي مثال للمرأة الجدباء، القحط في طبائعها وسجاياها. ويعد الغدر والجفاء من سيء طبائع النساء؛ إذ يصرمن حبل الود، ويقطعن كل مودة، يقول:

صَـــرَمتْ حَبْلَـــكَ الْبَغُـــومُ وَصَـــدّتْ *** عَنْـــكَ فـــي غَيْـــر رِيبَـــةٍ أَسْـــماءُ

وَالْغَـــواني إذا رَأَينَـــكَ كَهْـــلاً *** كـــانَ فِـــيهنَّ عَـــنْ هَـــوَاكَ التِـــوَاءُ[1]

لقد أبدت (البغوم) صدها، وقطعت صلتها، وكذلك فعلت (أسماء)، وكأن الغدر طبع في كل النساء، فالغواني إن رأينَ الشيب لاح في الرأس، أظهرن الانحراف عن العهد، وأنكرنَ المعروف والود. يقول:

فَإنْ تَكُ سَـلْمَى قَـدْ جَفَتْنِـي وَطَاوَعَـتْ *** بِعَاقِبَـــةٍ بـــي مَـــنْ طَغَـــى وَتَكَـــذّبا

فَقَـــدْ باعَـــدَتْ نَفْـــسًا عَلَيْهـــا شَـــفِيقَةً *** وَقَلْبًـــا عَـــصَى فيهـــا الْمُحِـــبَّ المُقَرَّبـــا[2]

ساءت طبائع (سلمى)؛ إذ هجرت بعد وصل، وأمعنت في جفائها، واستبدت بظلمٍ بعد ودّ، فباعدت نفسا كانت رحيمة بها، وقلبا طالما عصى فيها الوشاة، لذا فلا آمان لأنثى كما يقول:

لا تَـــأْمَنَنَّ الـــدَّهْرَ أُنْثَـــى بَعْـــدَها *** إنِّـــي لِـــآمِنِ غَـــدْرِهِنَّ نَـــذيرُ

بَعْـــدَ الَّتـــي أعْطَتْـــكَ مِـــنْ أَيْمانِهـــا *** مـــا لا يُطِيـــقُ مِـــنَ العُهُـــودِ ثَبِيـــرُ[3]

وكأنّ الغدر طبيعة متأصلة في النساء عامة؛ لا يحفظنَ العهد ولا يرعينَ الودّ حتى لو بلغت عهودهنّ ومواثيقهنّ قدر جبل ثبير بمكة، فكلهنّ صواحب غدر، يقول:

لَجَّـــتْ فُطَيْمَـــةُ مِنْـــكَ فـــي هَجْـــرِ *** غَـــدْرًا وَهُـــنَّ صَـــواحِبُ الغَـــدْرِ

مِـــنْ بَعْـــدِ مـــا أَعْطَتْـــكَ مَوْثِقَهـــا *** أنْ لا تَخُونَـــكَ آخِـــرَ الـــدَّهْرِ[4]

---

[1]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٣٦.

[2]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٥٤.

[3]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٤٨.

[4]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٨٩.

تمادت (فطيمة) في غدرها؛ فهو طبع متأصل فيها كما هو طبع في كل النساء، يعطين المواثيق والعهود بالبقاء على العهد إلى آخر الدهر، ثم لا يلبثنَ يغدرنَ وينقضنَ عهدهنَ.

ولا تألو المرأة جهدا في تكرار اللوم والعتاب، فطبيعتها لوّامة عاتبة، لا تملّ العتاب، يقول:

أَصْبَحَ القَلْبُ قَدْ صَحا وَأَنابا *** هَجَرَ الَّهْوَ وَالصِّبا وَالرَّبابا

كُنْتُ أَهْوَى وِصَالَها فَتَجَنَّتْ *** ذَنْبَ غَيْرِي فَمَا تَمَلُّ العِتابَا[1]

فالعتاب من طبيعة المرأة فهي لا تملّه، وكثيرا ما أدى هذا الطبع منها إلى قطع المودة، ونفور الرجل منها؛ لما يسببه تكرار العتاب من ضجر وهمّ، يقول:

طَالَ لَيْلِي وَتَغَنَّاني الطَّرَبْ *** وَاعْتَرَانِي طُولُ هَمِّي بِنَصبْ

أَرْسَلَتْ أَسْمَاءُ فِي مَعْتَبَةٍ *** عَتَبَتْهَا وَهْيَ أَهْوَى مَنْ عَتَبْ[2]

يعد السفور طبيعة في بعض النساء؛ إذ لا يمنعن الرجل منهن، ولا يستترن بحياء ولا عفة، وهذا طبع تأباه عادات المجتمع العربي الإسلامي وتقاليده التي عرفت المرأة محتشمة مصونة، قال تعالى: "وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"[3]، بيد أن شاعرنا عرض مثالا لطبيعة المرأة التي لا تمنع نفسها من الفجور، يقول:

ثُمَّ قَالَت وَسَامَحَتْ بَعْدَ مَنْعٍ *** وَأَرَتْنِي كَفًّا تَزِينُ السِّوارا

---

[1]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٥٥.

[2]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٤٦.

[3]- القرآن الكريم : سورة النور، آية ٣١.

فَتَنَاوَلْتُهـــــا فَمَالـــــتْ كَغُـــــصْنٍ *** حَرَّكَتْـــــهُ رِيـــــحٌ عَلَيْـــــةِ فَحـــــارا

وأَذَاقَـــــتْ بَعْـــــدَ العِـــــلاجِ لذيـــــذًا *** كَجَنَـــــى النَّحْـــــلِ شَـــــابَ صِـــــرْفًا عُقَـــــارا

ثُـــــمَّ كانَـــــتْ دُونَ اللِّحـــــافِ لِمَـــــشْغو *** فٍ مُعَنًّـــــى بِهَـــــا صَـــــبوبٍ شِـــــعارا

واشْـــــتَكَتْ شِـــــدَّةَ الإِزَارِ مِـــــنَ البُـــــهْ *** رِ وَأَلْقَـــــتْ عَنْهـــــا لَـــــدَيَّ الخِمـــــارا

حَبَّـــــذا رَجْعُهـــــا إِلَيْهـــــا يَـــــدَيْها *** فـــــي يَـــــدي دِرْعُهـــــا تَحُـــــلُّ الإِزارا[1]

لقد لانت ووافقت المراد بعدما أظهرت المنع والصد، ثم ما لبثت أن كشفت له عن كفها، لتبدأ في رسم لوحة من السفور من تمايل وتثنّي في أحضان الحبيب، إلى قُبلات رضابها كالعسل يمازج الخمر الصافي، إلى تخلٍّ عن ثيابها جزءا فجزءا حتى ثوبها الذي يلامس جسدها، فلم يبق على رأسها ولا جلدها خمار، ولا قميص، ولا ثوب محيط... إلى ما خفي من ملامح هذه الصورة، وبان في غيرها، كقوله:

فَـــــأَذَاقَتْني لَذيـــــذًا خِلْتُـــــهُ *** ذَوْبَ نَحْـــــلٍ شِـــــيبَ بالمـــــاءِ الْخَـــــصِرْ

وَمُـــــدامٍ عُتِّقَـــــتْ فـــــي بابِـــــلٍ *** مِثْـــــلِ عَـــــيْنِ الـــــدِّيكِ أَوْ خَمْـــــرِ جَـــــدَرْ

فَتَقَـــــضَّتْ لَيْلَتـــــي فـــــي نِعْمَـــــةٍ *** مَـــــرَّةً أَلْثَمُهـــــا غَيْـــــرَ حَـــــصِرْ

وَأَفَـــــرِّي مِرْطَهـــــا عَـــــنْ مُخْطَـــــفٍ *** ضَـــــامِرِ الأَحْـــــشَاءِ فَعْـــــمِ المُـــــؤْتَزَرْ

فَلَهَوْنَـــــا لَيْلَنـــــا حَتَّـــــى إِذا *** طَـــــرَّبَ الـــــدِّيكُ وَهَـــــاجَ المُـــــدَّكِرْ

حَرَّكَتْنـــــي ثُـــــمَّ قَالـــــتْ جَزَعًـــــا *** وَدُمُـــــوعُ العَـــــيْنِ مِنهـــــا تَبْتَـــــدِرْ:

قُـــــمْ صَـــــفِيَّ الـــــنَّفْسِ لا تَفْـــــضَحُني *** قَـــــدْ بـــــدا الـــــصُّبْحُ وَذا بَـــــرْدُ الـــــسَّحَرْ[2]

قضى الشاعر ليلته متنعما بهذه الفتاة، يلْثُمها مرة، فيتذوق من لذيذ رضابها الذي يشبه الخمر الممزوج بالعسل، وينزع عنها كساءها، ليبدو خصرها النحيل، وعجزها الممتلئ، ليظل يلهو بها وتلهو به حتى صاح الديك قبيل السحر، نبهتني بحزن

[1]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٥٦.

[2]- ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٦٤.

وعيونها تنهمر بالبكاء: أن قم لا تفضحني، فقد كشف الصبح ستر الليل. ومثل ذلك قوله:

فَقُلْتُ لَهَا أَهْلاً بِكُمْ إِذْ طَرَقْتُمُ *** فَقَدْ زُرْتِ صَبًّا يَا قُتَيلَ مُؤَرَّقَا

فَبَاتَتْ تُعاطِينِي عِذَابًا حَسِبْتُها *** مِنَ الطِّيبِ مِسْكًا أَوْ رحيقًا مُعَتَّقَا

فَبِتُّ قَرِيرَ العَيْنَ آخِرَ لَيْلَتِي *** أُلاعِبُ فيها واضِحَ الْجِيدِ أَعْنَقَا

فَبِتْنَا بِتِلْكَ الحَالِ إِذْ صَاحَ نَاطِقٌ *** وَبَيَّنَ مَعْرُوفُ الصباحِ فَصَدَّقَا[1]

على هذه الصورة تبدو المرأة لعوبا، سافرة في طبائعها، تبيح جسدها كما تبيح روحها لمعشوقها، وهو ما يغير صورتها من عزيزة مصانة مطلوبة إلى سهلة مبذولة طالبة، تبوح لجارتها بتعلقها بالرجل، وتظهر الوله والعشق للمحبوب، يقول:

لِلَّتِي قَالَتْ لِجَارَتِهَا *** وَيْحَ قَلْبِي مَا دَهَى عُمَرا

فِيمَ أَمْسَى لا يُكَلِّمُنَا *** وَإِذا نَاطَقْتُهُ بَسَرا

أَبِهِ عُتْبَى فَأُعْتِبُهُ *** أَمْ بِهِ صَبْرًا فَقَدْ صَبَرا

أَمْ حَدِيثٌ جَاءَهُ كَذِبٌ *** أَمْ بِهِ هَجْرًا فَقَدْ هَجَرا

أَمْ لِقَوْلٍ قَالَهُ كَاشِحٌ *** كَاذِبٌ يَا لَيْتَهُ قُبِرا

لَوْ عَلِمْنَا مَا يُسَرُّ بِهِ *** مَا طَعِمْنَا البَارِدَ الخَضِرا

وأرى شَوْقِي سَيَقْتُلُنِي *** وَحَبِيبَ النَّفْسِ إِنْ هَجَرا

إِنّ نَوْمِي مَا يُلائِمُنِي *** أَجْلَهُ يَا أُخْتِ إِنْ ذُكِرا[2]

تبدو المرأة في هذه الصورة جريئة، تبوح لجارتها بحبها المكنون، تسألها عما أصابها من حب (عمر)، وما فعل بها؟ فلا هو يبادرها بالكلام، ولا هي تجد منه ما يشفي صدرها من لوعة الحب، سوى قلب صلد، ووجه عابس. وتقتلها اللهفة ويبريها

[1]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٢٣٩.

[2]– ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٧٥.

الشوق إلى وصله، تتساءل: هل هو لائمي؟! فأترضّاه. أم جاءته وشاية هجرنا على إثرها؟! إلى غيرها من الأسئلة التي تبدو معها المرأة طالبة لا مطلوبة.

لذا يعد شعر عمر بن أبي ربيعة مصدرا معبراً عكس طبائع المرأة الحسية والمعنوية؛ إذ قدّم وصفا دقيقا لحياتها الداخلية، وصورة واقعية لطبائعها النفسية. وقد بدت طبائع النساء في شعره هي نفسها التي رصدها الشعر الأموي؛ فمن طبائعها الحميدة كان الحياء، والعفاف، والوقار، وصيانة النفس، والتدلل. ومن سيء طبائعها كان الهجر، والغدر، والسفور، واللهو. فتباينت طبائع نساء العصر؛ تبعًا لنشأة المرأة وتربيتها من ناحية، أو لما اكتسبته من طبائع نتيجة اختلاطها واحتكاكها بالثقافات الوافدة عليها من جهة أخرى.

الخاتمة

يقصد بأدب طبائع النساء: ما تناولته دواوين الشعر من صفات المرأة المعنوية، وما طُبعت عليه من سجايا، سواء كانت متأصلة فيها أو مكتسبة، وسواء كانت هذه الطبائع محمودة أو مذمومة.

رسم الشعر الأموي صورة واقعية لطبائع نسائه، بدت في أخلاقهنّ الحسنة من حياء، وعفاف، ووقار، وحكمة، وحفظ للعهد، وصيانة للنفس، وتدلل وغيرها من الطبائع المحمودة. كما بدت في أخلاقهنّ السيئة من غدر، وكُفر العشير، وهجره في كبره، ونكران معروفه، أو في سفورهنّ، وإهمالهنّ بيوتهنّ، وجرأتهنّ على الرجال وغيرها من الطبائع المذمومة.

لم تسر طبائع النساء الأمويات كلها في مسار واحد؛ إذ احتفظت نسبة كبيرة من نساء العصر بعادات وتقاليد القبيلة العربية المحافظة، ملتزمة بتعاليم الدين الإسلامي، بالإضافة إلى ما ورثته وتربّت عليه من حياء وعفّة وطهارة، بينما كانت هناك مؤثرات سلبية أثرت في ظهور طبائع منفّرة؛ كان منها ما هو متأصل، ومنها ما كان نتيجة النشأة والتربية ، أو الانجراف خلف التيار الجديد الذي أصاب الدولة الأموية نتيجة انفتاحها على الثقافات الأجنبية –لاسيما الفارسية–؛ حيث ظهر السفور، والفجور، والمجون، والفحش، واللهو، واللعب، وأصبحت المرأة طالبة لا مطلوبة، متأثرة بمرذول االطبائع الوافدة.

ويعد شعر عمر بن أبي ربيعة صورة صادقة للمرأة الأموية بشكل عام، وطبائعها بشكل خاص؛ فقد كان لنشأته – في النعمة على الوسامة والفراغ، ومن حوله الجواري والأرقاء، بالإضافة إلى ما تمتع به من الثراء– دور كبير في مراقبة المرأة عن قُرب، ووصفها داخليا وخارجيا، ومراقبة سلوكها وطبائعها بدقة وواقعية، بيد أن هذه الصورة جاءت موافقة إلى حد كبير مع نظيرتها التي رسمها الشعر الأموي عامته، فبدت طبائع نسائه منقسمة على نفسها قسمين، يحمل القسم الأول طبائع محمودة، والآخر طبائع مذمومة، وهو ما يؤكد صدق الصورة وواقعيتها.

زادت طبائع النساء في شعر عمر بن أبي ربيعة على شعراء عصره صورة المرأة الطالبة التي لا تتغزل بالرجل، وتطلبه، ولا تجد حرجا في الإفصاح عن هذا الحب وتلك الرغبة، وهي طبيعة مذمومة لا يقبلها المجتمع الأموي خاصة والعربي عامة الذي اتخذ من التدين والمحافظة صورة وطابع عام له.

المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم.
- البخاري: صحيح البخاري، دار بن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- أبو بكر عبدالله بن أبي الدنيا القرشي البغدادي: مكارم الأخلاق، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٠م.
- جرير بن عطية: الديوان، تحقيق: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١٩٨٦م.
- جميل بثينة: الديوان، تحيق: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت.
- أبو الحسن البلازي: فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١م.
- حميد بن ثور الهلالي: الديوان، تحقيق: محمد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠م
- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٤م.
- الشنفرى: الديوان، جمع وتحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١٩٩٦،٢م.
- أبو عبدالله المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- ابن عبدربه الأندلسي: طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب، وأخبار وأسرار، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة.
- العقد الفريد، تحقيق: محمد سعير العريان، دار الفكر، بيروت، ١٩٤٠م.
- عبيدالله بن قيس الرقيات: الديوان، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.
- العرجي: الديوان، جمع وتحقيق وشرح: سجيع جميل، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م
- عمر بن أبي ربيعة: الديوان، تقديم وفهرسة: فايد محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م.
- عمر بن لجأ التيمي: الديوان، تحقيق: يحي الحبوري، دار القلم، الكويت، ط١٩٩٨،٣
- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب، ط ١٩٦٣م.

- الفرزدق: الديوان، شرح وضبط: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١،١٩٨٧م
- كثير عزة: الديوان، جمع وشرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م
- الكميت بن زيد الأسدي: الديوان، جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م
- يزيد بن مفرغ الحميري: الديوان، جمع وتحقيق: عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٩٨٢م

المراجع:

- جبرائيل سليمان جبور: عمر بن أي ربيعة –حياته وشعره– دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢م.
- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر.
- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط٧.
- طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط٧.
- عباس محمود العقاد: شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
- عبدالله الطيب، الحماسة الصغرى، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.

المراجع المعربة:

- جان أيف تاديبه: النقد الأدبي الحديث في القرن العشرين، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحديث، ط١، ١٩٩٤م.

الرسائل والدوريات:

- عبيد الله بن قيس الرقيات –حياته وشعره– تأليف: إبراهيم عبدالرحمن، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، مصر، ١٩٥٩م